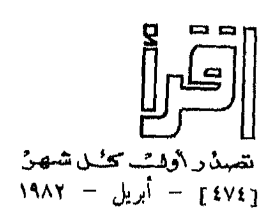
سلوى العنانى

اقرأ

موعد ولقاء







تصدر أول كل شهر
[٤٧٤] - أبريل - ١٩٨٢

رئيس التحرير أنيس منصور



سلوى العنانى

موعد ولقاء



دار المعارف

تصميم الغلاف للفنان : حسين بيكار

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إلى العلم
والحب ..
والعطاء ..
إلى .. أبي

سلوى



موعد ولقاء .. لماذا ؟

موعدٌ ولقاء مع عشرات بل مئات الأعلام والمشاهير.. هذه هى حياة من حمل القلم وارتضى الكتابة الصحفية « مهنة » له ..

وهو قد يختار هؤلاء الأعلام والمشاهير بنفسه وقد يطلب منه « الغير » شخصيات بعينها ليلتقى بها .

وبين دفتى هذا الكتاب الصغير ثمانية عشر لقاء مع أعلام اخترتهم أنا لألتقى بهم .. بعض هؤلاء رحلوا عن عالمنا منذ قرون طويلة أو سنوات قليلة ، وبعضهم الآخر مازال يحيا بيننا .. وهؤلاء وهؤلاء التقيت بهم بعد موعد أوفى مناسبة .. التقيت « بأرسطو » بعد ثلاثة وعشرين قرناً من وفاته ، والتقيت بالفنان « مدحت عاصم » عندما منح جائزة الدولة التقديرية .

ولا أخفى على القارئ أن كثيراً من الإعجاب هو الذى أملى علىّ اختيارى لهذه الشخصيات لهذا فقد سعيت إليها باللقاء ، أو سعيت إليها بين أوراق الذكريات والأبحاث ، ولا أخفى عليه كذلك أن إعجابى قد زاد بعد اللقاء ، بل إن عاطفة رقيقة نسجت خيوطها بينى وبين كل من التقيت بهم بعد أن استعرضت جوانب العبقرية فى شخصيته لهذا اخترت (الحب) علماً من بين هذه الأعلام فى محاولة

للاقتراب من هذه القيمة العظيمة التى ربطتنى بهؤلاء وبغيرهم من أعلام الفكر الإنسانى .

فإلى هؤلاء .. الخالدين منهم والذين يحيون بيننا .. أهدى كلماتى . لعلها تكون لفتة وفاء ، عرفاناً بما قدموا إلينا ، من علم .. وفن .. وحب ..

سلوى العنانى

العالم يحتفل بمرور ٢٣ قرناً على وفاة أرسطو *

العرب يجعلون من «أرسطو» معلمهم الأول ويقدمونه لأوربا بعد دراسة جديدة

يحتفل العالم هذا العام بمرور ٢٣ قرناً على وفاة المفكر اليونانى العظيم « أرسطو » ، فتنظم اليونان احتفالا بهذه المناسبة فى أغسطس ، تقام فى أثنائه ندوة عن مؤلفات « أرسطو » وتاريخه وأثره على الفكر .

وكانت هيئة اليونسكو الدولية قد عقدت مائدة مستديرة فى مقرها فى باريس فى الفترة من الأول وحتى الرابع من يونية سنة ١٩٧٧ حول فكر « أرسطو » وتاريخه وشارك فى اللقاء خمسة وسبعون مفكراً من شباب وشيوخ الفكر الفلسفى فى العالم ، وتزخر المكتبات بالعديد من المؤلفات والبحوث التى كتبت عن هذا العملاق بكل لغات العالم ، فقد ظل تأثير « أرسطو » على الفكر العالمى حتى بعد عصر النهضة والعصور التالية ، واضطر العلماء إلى الأخذ بأقواله فى العلوم الطبيعية فضلا عن الفلسفة ، فلم يكن سهلاً الاستغناء عن المصطلحات التى وضعها « أرسطو » ، كما يشهد كل النقاد والمؤرخين بأن آراءه فى الشعر وفى المسرح الملحمى مازال معمولاً بها إلى يومنا هذا ، ولا يستطيع أى كاتب أن يغفل القواعد التى جاءت بها .

* يناير ١٩٧٨

تلميذ حتى الأربعين :

ولد « أرسطو » فى عام ٣٨٤ ق .م فى (ستاجيرا) من أعمال تراقيا (وهى إقليم يشغل الطرف الجنوبى من شبه جزيرة البلقان) ، وكان أبوه طبيبًا للملك مقدونيا ، وفى نحو الثمانية عشرة جاء « أرسطو » إلى أثينا ، حيث تتلمذ على يد « أفلاطون » . وظل يطلب العلم فى (الأكاديمية) إلى سن الأربعين ، وهى سن متقدمة بالنسبة لفيلسوف مستقل الفكر كان يدرس على يد عملاق مثل « أفلاطون » ، ولا يعرف التاريخ فيلسوفًا آخر ظل يتلقى العلم من أستاذه فى مثل هذه المدة .

وقد تأثر « أرسطو » بالروح التى سادت الأكاديمية فى ذلك الحين – وإن لم يتأثر بكل التيارات التى وجدت بها – كما تأثر « أرسطو » بالناحية الطبيعية والفلكية ، وكانت أساس أبحاثه المقبلة خاصة وأنها تلائم اتجاه فكره الخاص .

أما أخطر هذه الآثار عليه ، فكان تأثره بشخصية « أفلاطون » ، خصوصا وأن « أفلاطون » كان يسير دائماً على أساس أن العلم لا يمكن أن ينفصل مطلقاً عن العمل ، لأن الإنسان لا يمكن أن يعرف العدالة – مثلاً – إلا إذا كان عادلا . لذلك كانت شخصية أفلاطون قوية الأثر بشكل ملحوظ فى عقول أبناء هذا الجيل الذى تتلمذ عليه .

معلم « الإسكندر » :

وبعد موت « أفلاطون » فى عام ٣٤٨ ق .م غادر أرسطو أثينا وانتقل إلى آسيا الصغرى وقضى عدة سنوات متنقلاً بين بلدانها ومدنها إلى أن اختاره « الملك فيليب » ملك مقدونيا ليكون مربياً لابنه « الإسكندر » ، وهو الفارس الفاتح الشهير الذى لقب فيما بعد « بالإسكندر » الأكبر .

وفى هذه الفترة كتب « أرسطو » عديداً من المحاورات والكتب التعليمية ، وتميزت محاوراته بتفوقها من الناحية الفنية حتى قال عنها « شيشرون » المفكر الرومانى الشهير (إنها أنهار من الذهب).

وقد أثرت هذه المؤلفات بشكل خاص فى الرواقيين أو الأفلاطونيين المحدثين حيث عدّوها فى مرتبة لا تقل عن مرتبة محاورات « أفلاطون » نفسه من ناحية الشكل والمضمون.

ويرى بعض المؤرخين أن هناك اختلافاً كبيراً بين مؤلفات « أرسطو » المستورة وهى تضم المحاضرات التى قصد بها خاصة تلاميذه، وبين مؤلفاته المنشورة والتى يقصد بها أن تكون محاضرات يحضرها الجمهور.

وتحتوى الكتب المنشورة على أقوال ومذاهب شعبية سائدة ومألوفة يستطيع العامة تفهمها ، كما تحوى عدداً من الأفكار الشائعة ، وهذه لا تعبر عن فكر « أرسطو » الحقيق ، أما مؤلفاته المستورة فهى وحدها التى تعبر عن فكره الحقيقى لأنه أودع فيها مذهبه الخاص وكتبها فى شىء كثير من البيان والتحسين اللفظى وبطريقة منطقية.

مؤسس الليسيه :

ولما تولى « الإسكندر المقدونى » عرش بلاده فى عام ٣٣٦ ق.م ترك « أرسطو » مقدونيا وعاد إلى أثينا وأسس (اللقيون) أو (الليسيه) وهى مدرسة خاصة به على غرار أكاديمية « أفلاطون » ، ولم تكن طريقته فى هذه الفترة قائمة على الحوار فقط ، وإنما شملت عدداً ضخماً من المحاضرات ، وكانت دروس الصباح تُخَصَّص للمسائل الفلسفية العالية الخاصة بالتلاميذ . أما دروس المساء فكانت فى الخطابة والشعر ، وكانت موجهة لجمهور أكبر وظهرت فى هذه الفترة عناية

« أرسطو » بالمسائل العلمية وكان معظم أساتذة (اللقيون) من غير الأثينيين بخلاف أكاديمية « أفلاطون » التى كان معظم أعضائها من الأثينيين ، وكان من عادة « أرسطو » أن يلقى دروسه على تلاميذه وهو يتمشى فى حديقة معهده وحوله تلاميذه يحاذون خطواته ، فأطلق على هؤلاء التلاميذ (المشائين) ويقصد بهم تلاميذ أرسطو وحواريوه الذين يتمشون معه ويتعلمون منه ..

الملاحظة والتجربة والعقل :

وكان الاتجاه الجديد الذى أعطاه « أرسطو » للفلسفة اليونانية الهلِّلينية هو الانتقال من الظواهر الخارجية أو الجزئيات ، إلى الكليات أو الماهيات . ولم يكن منهجه استنباطيًّا فقط ، بل أضاف إلى ذلك الاستقراء والملاحظة والتجربة ، وهو يرى أنه يوجد فى كل نفس ملكة أو قوة هى العقل ، وهو الذى يدرك المبادئ الأصيلة الأولية الفطرية ، لأن هذه المبادئ لا يمكن أن تُستخلص من المحسوسات .

« أرسطو » الفيلسوف :

يختلف « أرسطو » الفيلسوف عن كل أسلافه فى كثير من الوجوه ، فهو أول من كتب بطريقة منهجية . فنرى رسائله منسقة أجزاءً ، وأبحاثه مقسمة أبوابًا ؛ وهو معلم محترف للمؤلفات النقدية ، والعالم عند « أرسطو » أنواع وأجناس ، يندرج فيه الأخص تحت الأعم ، فالإنسان نوع من الحيوان ، والحيوان بدوره نوعٌ من الكائن الحى .

وقد عرَّف « أرسطو » الفلسفة بأنها البحث فى الموجود بما هو موجود ، ووفق إلى وضع الفلسفة بأقسامها الوضع النهائى . وكان يُسمى الفلسفة التى تبحث فى

الوجود بما هو موجود (الفلسفة الأولى) ، وقد سُميت (بالميتافيزيقا) أو ما بعد الطبيعة . تمييزاً لها عن الفلسفة الثانية وهى عنده العلم الطبيعى . وأسماها كذلك (بالحكمة) لأنها تبحث عن العلل الأولى ، وأسماها أيضاً بالعلم الإلهى من حيث أن موضوعها هو الموجود الأول والعلة الأولى للوجود .

ويقسم « أرسطو » العلوم إلى نظرية وعملية ، والعلوم النظرية أشرف من العلوم العملية ،لأن الأولى لا تهدف إلى تحقيق غايات عملية ، ويتمثل فيها كمال العقل ، وهو أسمى قوى الإنسان ، وقد أدت هذه النظرية إلى اعتبار الفلسفة الأولى (الميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة) أشرف العلوم جميعها ، لأن كمال العلم عنده يكون بمقدار دنوه من النظر العقلى المحض . وبعده عن مطالب الحياة ومنافعها . ويعتبر « أرسطو » الحياة العقلية غاية فى ذاتها وبالتأمل الدائم والنظر العقلى الخالص يتحقق للإنسان سعادة ليس وراءها سعادة .

الهدف هو السعادة :

لقد حارب « أرسطو» القول بأن اللذة هى الغاية القصوى لأفعالنا الإنسانية واعتنق فكرة السعادة واستكمل بحثها حتى أصبحت مذهباً فلسفيًّا دقيقاً .

وقال « أرسطو» إن ما يقصد إليه الناس جميعاً هو السعادة لتكون الغاية القصوى ، لحياتهم ، وكان يرى أن السعادة الحقيقية تقوم على مزاولة التأمل العقلى ، وهى توضع فى عداد الأفعال التى تطلب لذاتها ولا تتخذ أداة لغاية أبعد منها .

أرسطو والعرب :

عرف العالم الإسلامى « أرسطو » أول ما عرفه عبر المدارس الفكرية الشرقية فى

مراكز ثقافية هامة فى حران ، ونصيبين ، والإسكندرية خلال القرنين السابقين على ظهور الإسلام . وبعد الإسلام بدأت ترجمة آثار « أرسطو » المترجمة إلى الفارسية والسريانية إلى اللغة العربية ، لكن العرب لم يقفوا عند هذه المصادر غير المباشرة ، وإنما بدءوا فى أخريات القرن الأول وأوائل القرن الثانى الهجرى فى دراسة اللغة اليونانية وترجمة الآثار الفكرية اليونانية إلى العربية مباشرة ، وأرسلت البعثات لجمع المخطوطات اليونانية من أثينا ، واستنبول ، والإسكندرية ، وكان العرب جادين فى حركة الترجمة فأنشئوا مدارس الترجمة وأغدقوا عليها ، ثم أنشئوا دار الحكمة فى عام ١٥٠ – ٢٠٠ هجرية .

وبعد ترجمة هذه المراجع ، بدأ العلماء فى مراجعتها وتصحيحها وتلخيصها وشرحها .

الجدل الأرسطى والتوحيد :

وكان أول المهتمين « بأرسطو » من المسلمين هم المتكلمون أو(علماء التوحيد) وأشهرهم المعتزلة الذين لفتوا النظر إلى ما تحتويه كتابات « أرسطو » من مادة تستحق القراءة والبحث ، خاصة ما يتعلق منها بالدراسة الطبيعية ، والبحث فى نظام الكون ، وإثبات الألوهية ، والوصول إلى الوحدانية عن الطريق العقلى .

وأصبح الجدل باباً من أبواب دعم العقيدة الإسلامية ، وظهر بعد هذا مجموعة من المفكرين الذين ساروا فى الخط الجدلى ، وعرفوا باسم المشائين العرب ومن أهمهم « الكندى » فى القرن الثالث الهجرى ، «والفارابى » فى القرن الرابع ، « وابن سينا » فى القرن الخامس ، « وابن رشد » فى القرن السادس .

وقد تأثر اللغويون العرب بما جاء فى «كتاب العبارة لأرسطو» ، فقسموا الكلام إلى ثلاثة أقسام : الاسم والفعل والحرف .

ولم يقف أثر العلم والفلسفة العربية داخل بلادهم ، بل تعدت آثارهم إلى أوربا المسيحية ، ولم يكن هذا الأثر وليد الحروب الصليبية كما يشاع ، بل كانت الصلة بين الغرب وفكر المشرق أولا عن طريق الأندلس التى كان بها عديد من المراكز الثقافية والعلمية العظيمة ، مما جعلها قبلة لطلاب العلم من كل أوربا ، كما كانت مركز استشفاء هام . فبدأ فى ترجمة العديد من الكتب العربية والعبرية إلى اللاتينية ، ومن أهم هذه المؤلفات ماكتبه « ابن رشد » عن « أرسطو » من شروح وملخصات ، وكانت هذه هى أول علاقة بين الفكر الأوربى « وأرسطو » عندما أخذوه عن العرب فى القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين ثم بدءوا يبحثون عنه فى الأصول اليونانية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين .

مؤسس علم المنطق :

عندما مات « أرسطو » فى عام ٣٢٢ق.م ، كان قد وضع اللبنات الأولى لعديد من العلوم والمعارف فى مؤلفاته التى يحصرها البعض فى عشرين كتاباً .

واستطاع هذا الفيلسوف اليونانى أن يثبت للعالم أن المعرفة الإنسانية – مهما تعددت فروعها – تنبع من معين عقلى واحد .

فقد وضع قواعد علم المنطق والأخلاق والطبيعة وما بعد الطبيعة منذ ثلاثة وعشرين قرناً .. ومازال العلماء على اختلاف ألسنتهم وقومياتهم يعتبرون هذه القواعد هى أساسيات دراستهم وأبحاثهم .

ويذكر كل منهم بجانب هذا . ما لعلماء العرب المسلمين من فضل فى التعريف بأرسطو وشرحه ودراسته .

العالم يحتفل بمرور ألف عام ميلادى على مولد « الشيخ الرئيس ابن سينا » *

«أقل ما يقال فى الرجل أنه لم يترك ثقافة بنى الإنسان كما
وجدها حين نشأ فى الدنيا فكان له فى توجيه العقول شأن
لو زال لزال معه شيء غير قليل من تراث المعرفة والتفكير»
(عباس محمود العقاد من كتابه الشيخ الرئيس ابن سينا)

بقدر ما يتميز علماؤنا فى العصر الحديث بالتخصص الدقيق فى فرع من فروع علم واحد ، بقدر ما يتسم رواد العلم الأوائل بالموسوعية فى فروع دراستهم ، ودليلنا على ذلك مئات الأسماء والعبقريات ، ويُعد اسم (ابن سينا) من ألمع هذه الأسماء إن لم يكن ألمعها جميعها ، فقد ظلت مؤلفاته إلى عهد قريب مراجع للعلماء والباحثين فى علوم الطب ، والمنطق ، والفلسفة ، والرياضيات ، والطبيعيات ، إلى جانب دراساته فى علم الأخلاق والفلك والموسيقى .

ولد « أبو الحسين عبد الله بن سينا » فى مدينة (بُخَارَى) بآسيا الوسطى فى عامٓ ٣٧٠ هجرية (٩٨٠ ميلادية) وكان أبوه صرافاً ، وكان محبا للعلم والثقافة . فلما بلغ ابنه السادسة من عمره عهد به إلى معلم يعلمه القرآن ومبادئ الأدب ، وشهد

* يناير ١٩٨٠ .

بالنبوغ والتفوق ، وكانت (بُخارَى) دائماً قبلة أنظار العلماء ومحط
كثيراً ما كان يزورها هؤلاء ، وكلما سمع « ابن سينا » بواحد لزمه حتى
، ما عنده .

ارى) يوماً رجل اسمه (الناتلى) وكان يدعى المتفلسف فاستضافه والد
ى داره على أمل أن يتعلم الفتى منه قدر ما يستطيع ، فتعلم منه مبادئ
الهندسة .

« ابن سينا » فى تعلم الطب فعلمه نفسه ، وبرز فيه ، واشتهر بأنه كان
ترددين عليه . وبدأ الأطباء يفدون إليه للدراسة ، وهو بعد لم يبلغ
ة . ثم انقطع « ابن سينا » لدراسة المنطق والفلسفة ، ويقول عن نفسه
حلة فى ترجمته الذاتية :

ت فى مسألة ، — ولم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس — ترددت إلى
ليت وابتهلت إلى مبدع الكون حتى فتح لى المنغلق ويسر المتعسر ،
بالليل إلى دارى وأضع السراج بين يدى ، وأشتغل بالقراءة
هما غلبنى النوم ، أوشعرت بضعف ، عدلت إلى شرب قدح من
ثما تعود إلىّ قوتى ، ثم أرجع إلى القراءة ، ومتى أخذنى نوم أحلم بتلك
نها ، حتى أن كثيراً من المسائل اتضح لى وجودها فى المنام .

قرأ « ابن سينا » العديد من كتب الفلسفة ، بدأ فى قراءة كتاب
ة « لأرسطو » ، ووجد صعوبة شديدة فى فهمه برغم أنه قرأه أربعين
ع فى يده كتاب « لأبى نصر الفارابى » فى شرح كتاب « أرسطو »
فهمه واستيعابه .

نوح بن منصور » سلطان (بُخارَى) فطلب « ابن سينا » لعلاجه ،
« ابن سينا » إليه وسمح له بدخول مكتبته التى انبهر بها « ابن سينا »

لما فيها من كتب غريبة ونادرة ، فأخذ يقرأ فيها حتى أنهى على ما بها من كتب .

ولما بلغ « ابن سينا » واحدًا وعشرين عاماً ، بدأ فى التأليف بعد أن شعر بأنه استوعب قدراً كبيرًا من العلم، ثم بدأ يضيف إليه من أفكاره .

لكنه مالبث أن فقد أباه وهو فى الثانية والعشرين ، مما اضطره للعمل فى خدمة عدد من السلاطين فى عصره ، فتنقل بين الولاة وبين البلاد ، مما عرضه للسجن والهرب أكثر من مرة حتى توفى فى عام ٤٢٨هـ-١٠٣٦م .

وبرغم كثرة الآثار العلمية التى وصلتنا منسوبة إلى « ابن سينا » ، فإن عدداً كبيرًا من كتبه ورسائله قد ضاع ، أو وقع فى أيدى أعدائه فأعدمتها غيرة وحسداً .

ويعترف عدد من معاصرى « ابن سينا » بفضله عليهم ، ومن هؤلاء « البيرونى » الذى قال عنه علماء أوربا إنه أكبر عقل ظهر فى تاريخ الإنسانية ، « وأبو سعيد بن أبى الخير » إمام المتصوفة ، « وابن مسكويه » الفيلسوف الأخلاقى المشهور ، « وأبو عبيد الجوزجانى » ، « وعمر الخيام » .

وأهم معجزات « ابن سينا » الصحيحة كما يقول الأستاذ « عباس محمود العقاد » فى كتابه عن « الشيخ الرئيس ابن سينا » هو كتاب « الشفاء » فى الإلهيات والطبيعيات ، وكتاب (النجاة) وهو مختصر الشفاء ، وكتاب (منطق المشرقيين) ويرى « العقاد » أن ألزم الكتب لمن يدرس « ابن سينا » هو كتاب (الإشارات) وهو قسمان : قسم فى المنطق ، وقسم فى الإلهيات .

أما فى الطب ، فعمدة كتب « ابن سينا » هو كتاب (القانون) الذى ظل مرجعاً فى جامعات أوربا لمدة تزيد على أربعة قرون .

ويقول « د . عاطف العراقى » ، أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة عن « ابن سينا » :

لقد تأثر كثير من الأوربيين الذين اشتغلوا بالعلم بما ذكره « ابن سينا » من

ملاحظات حول الحيوان والنبات والجبال والظواهر الطبيعية والصوت والضوء .

وكما أثرت كتابات « ابن سينا » فى مجال العلم ، فإنها أثرت فى الفلسفة فى عدد من المفكرين والفلاسفة الغربيين ، سواء فى عصر النهضة أو العصر الحديث .

فترجم « يوحنا الأسبانى » الجزء الخاص بالمنطق عن (كتاب الشفاء) « لابن سينا » كما ترجم « جنديسالفى » الجزء الخاص بالطبيعيات من (كتاب الشفاء) مع الجزء الخاص بالنفس وبالإلهيات .

وكان لترجمة هذه الأجزاء من (كتاب الشفاء) أثر كبير فى تشكيل وجهات نظر فلاسفة الغرب إزاء المشكلات الفلسفية التى يبحثونها .

فقد تأثر « البرت الكبير » فى القرن الثالث عشر الميلادى بآراء « ابن سينا » فى موضوع النفس الإنسانية التى اعتبرها جوهراً يختلف فى طبيعته عن الجسم . ومنها أيضًا تفسير « ابن سينا » لكيفية صدور العالم عن الله تعالى . كما اعتمد « البرت الكبير » فى دراسته « لأرسطو » على كتب « ابن سينا » .

ويضيف « د . عاطف العراقى » مثالا آخر على تأثير مؤلفات « ابن سينا » على مفكرى الغرب ، وهو « القديس توما الأكوينى » فيقول :

(لو رجعنا إلى مؤلفات « القديس توما » ، وخاصة تلك التى حاول فيها البرهنة على وجود الله تعالى لوجدنا أنه قد تأثر بما قال « ابن سينا » فى مجال البرهنة على وجود الله . ومن هذه الأفكار التمييز بين الوجود وواجب الوجود . فالوجود هو العالم ، أما واجب الوجود فهو الله تعالى .

كما يتضح هذا التأثير فى عديد من التيارات الفلسفية فى العصر الوسيط أو العصر الحديث ، خاصة وأن « ابن سينا » قد نجح فى التوفيق بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية .

ويضيف « د . عاطف العراقى » بأننا إذا اعترفنا بفضل « ابن سينا » على فلاسفة

الغرب ، فإن أثره على علمائه واضح كذلك ، فتجد أن « روجر بيكون » عالم البصريات الكبير ، يُبدى إعجاباً كبيرًا بآراء « ابن سينا » فى مجال التجربة والمشاهدة كوسائل فى البحث العلمى .

مذهب « ابن سينا » :

قرأ « ابن سينا » كل ما وقع تحت يده من كتب ومراجع ومخطوطات ، وكان لذهنه الصافى وقريحته المتوقدة أثر فى استيعاب كل ما يقرأ ، وقبل أن يبدأ « ابن سينا » فى التأليف كانت عقليته العلمية الفذة قد هضمت كل هذه القراءات ونقّتها ، ومع هذا وجدنا تقارباً فى آرائه من بعض آراء من سبقوه ، أو تشابه وجهات نظره لبعض وجهات نظرهم . ويقول « الأستاذ العقاد » فى هذا الموضوع : إن « ابن سينا » يشابه « الفارابى » فى التوفيقات الدينية ويقارب « فرفريوس ، والأفروديسى » فى الرموز الصوفية ، كما يقارب « أرسطو » فى التفكير المنطق ، ويقارب « أفلاطون » فى النزعة الفنية وفى الاستعانة بالأمثلة والرموز والأساطير لتوضيح ما يريد .

وهذا القرب يأتى من طريقين : الأول : تشابه مزاجهما الفنى وقوة ملكة الخيال عندهما ، والطريق الثانى : هو أن « ابن سينا قرأ معظم ما كتب « الفارابى » وهو من المهتمين « بأفلاطون » .

مضى « ابن سينا » فى دراسته للفلسفة بعد هذ الزاد الضخم من الترّاث الفكرى الذى حصله ، ولم يكن لمذهبه الفلسفى من حدود غير العقيدة الدينية ، وهى صحيحة سليمة فى جوهرها داخل نفسه .

وسنحاول أن نبسط بعض الأفكار الفلسفية التى ذكرها « ابن سينا » تحت عناوين فرعية صغيرة :

العالم : المادة الأولية والصورة والعدم ، هى الأصول الثلاثة التى عنها تصدر كل الأجسام الطبيعية ، والعالم مخلوق لم يحدث فى زمانه .

الله : هو أول ، وهو جوهر بسيط منزه عن التركيب ، ويرى « ابن سينا » أن الله تعالى يعلم كل ما وقع وما سيقع فى ملكه . إذ ليس علمه بالأشياء لأنها حدثت ، بل هى قد حدثت لأنه علم بها منذ الأزل ، فكان علمه بها سبباً لحدوثها ، ولكن علم الله يخالف علم الانسان ، كما يختلف المحدود وغير المحدود .

النفس : أثبت « ابن سينا » بقاء الأنا ، أى النفس ببقاء الجسد فى كل حالاته ، وهو فى ذلك سابق للفيلسوف الفرنسى « ديكارت » الذى يبطل الشك فى الوجود بقوله (أنا أفكر إذن أنا موجود) وتعتبر هذه الحقيقة أولى الحقائق الغنية عن الإثبات ، كما سبق « ابن سينا » « ديكارت » إلى القول بأن صفة الوجود لا تدوم للموجود بمجرد إيجاده بل إنه يكتسبها بالتجدد والدوام .

وهو يقول (إن مجيئنا إلى هذا العالم لم يكن باختيارنا وإرادتنا ولكنا جئنا ، وبالقهر نمكث ، وبالقهر نخرج ، وإنما جئنا هنا للتمحيص والتطهير - ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين - وطهارة النفس إنما تكون بالعمل الشرعى وبالعلم الإلهى . كما أن طهارة الجسم من النجاسة تكون بالماء أو بالتراب) .

الخير والشر : العالم عند « ابن سينا » يراد فيه الخير قصداً وأصلا ، ويأتى فيه الشر عرضاً لضرورة يقتضيها الخير .

فالخير أصيل فى العالم ، والشر عرض ، وهو ضرورة لاستكمال الخير الكثير الذى يدل عليه تماسك الموجودات ، ويقول « ابن سينا » (ليس فى الإمكان أبدع مما كان) .

الحرية الإنسانية : يرى « ابن سينا » أن النفس مكرهة على دخول الجسد ، مكرهة على فراقه ، وأنها لم تضع العوائق التى تصدها عن الترقى فى درج الكمال ،

وهو يؤمن بالتفاوت بين مقادير النفوس ، ويؤمن بالعدل فى نظام الوجود ، وبالخير المحض فيه . فهو يرى أنه لا يقع فى الدنيا ظلم ظاهر إلا كان له وجه باطن من العدل ، ولا يجرى الشر إلا فى مجرى الخير ، ولا تنتهى الأمور إلا إلى أفضل النهايات وهذا هو الإيمان بالله . ويلاحظ فى فلسفة « ابن سينا » أنها لم تشتمل على ما يناقض العقيدة الدينية فى أصولها ، بل هو يوافقها ويدعو إليها .

وجعل « ابن سينا » (النبوات) وظيفة حيوية فى بنية المجتمع الإنسانى ، ورأى وجوب وجود (نبى) على أن يكون له خصوصية ظاهرة ليتميز عن الناس إذا وجد هذا النبى وجب أن يسن للناس فى أمورهم سننا بأمر الله ووحيه . وهذا النبى يجب أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ولا يشغلهم بما يوقعهم فى الحيرة والشك ، ويجب أن يعرفهم بجلال الله وعظمته .

ويعد ما كتبه « ابن سينا » عن النفس الفردية وخلودها من الدعائم التى استند إليها أكبر علماء اللاهوت ، كما كانت ملاحظاته على (قوس قزح) وعلاقته بأحوال السحاب محل إعجاب رواد المدرسة التجريبية ، كما كانت طبيعياته من أسباب الفتوح العلمية الحديثة لأنها ظلت فى جامعات أوربا موضوعاً للدرس مع بحوثه الطبية لعدة قرون .

ابن سينا الطبيب :

لم يبلغ أحد شأو « ابن سينا » فى الطب ، ولا اقترب منه ، لأنه كان طبيب عصره بغير منازع فى الشرق كله .. ، ثم انتقلت مؤلفاته إلى الغرب فأصبح طبيب العالم بأسره زهاء أربعة قرون ، ولم يشتهر أحد بهذه الصناعة مثل شهرته العالمية تلك باستثناء « بقراط » ، « وجالينوس » .

ويُروى عنه أنه احترف الطب وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وكان كتابه

فى الطب (القانون) قد ترجم فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى إلى اللغة اللاتينية ، فأصبح مرجعاً للدراسات الطبية فى جامعات أوربا من أقصاها إلى أقصاها ، وظل يدرس فى جامعتى (مونبليه ، ولوفان) إلى منتصف القرن السابع عشر كما أنه مازال يدرس حتى الآن فى كليات الطب فى بعض الولايات الهندية .

وكان (القانون) « لابن سينا » وكتاب (المنصورى) « للرازى » هو المرجع الأساسى لأساتذة جامعة (فينا) وجامعة (فرانكفورت) طوال القرن السادس عشر ، كما ترجم إلى العبرية وتداوله الإسرائيليون المشتغلون بالطب فى أرجاء العالم.، وتكررت طبعاته حتى قاربت أربعين طبعة حتى بداية القرن السادس عشر ، عدا الكراسات المقتبسة منه .

ويقول العالم « نوبرجران » إن علماء عصره كانوا ينظرون إلى (كتاب القانون) كأنه وحى معصوم ، ويزيدهم إكباراً له تنسيقه المنطقى الذى لا يُعاب ، ومقدماته التى كانت تبدو لأبناء تلك العصور كأنها القضايا المسلمة والمقررات البديهية .

لقد كان (القانون) أوفى مراجع الطب القديم ، وظل كذلك حتى عصر الموسوعات الحديثة فى أوائل القرن التاسع عشر ، لما اشتمل عليه من إحاطة وتنسيق فى أصول الطب وفروعه ، ودراسة لأعراض الأمراض ، ووصف العلاج مع سرد لأسماء العقاقير ، ومواطن الجراحات وأدوات الجراحة .

وبرغم ارتباط الطب فى عصر « ابن سينا » بالكهانة والشعوذة ، فإنه لم يخلط بينهما ، واعتبر الأمراض الجسمانية عوارض قابلة للتشخيص والعلاج ، كما آمن بالأمراض النفسية وعلاجها بالطرق الكيمائية .

ويقول « العقاد » فى كتابه عن الشيخ الرئيس ابن سينا : (إنه كان يعتبر العشق من الأمراض التى شخص أعراضها ووصف لها العلاج الشافى) .

ابن سينا الأديب :

حفظ «ابن سينا» القرآن وهو لم يبلغ العاشرة بعد ، فتعود لسانه الفصاحة منذ صباه ، وقرأ عيون المؤلفات الأدبية العربية والفارسية المعروفة فى عصره ، وكان يهوى شراء الكتب واقتناءها ودراستها ، حتى عرفه الوراقون منذ صباه .. فكانوا يأتونه بالغريب والفريد من الكتب .

وكان «لابن سينا» شعر عرف عنه ، وإن كان لم يشتهر به ذلك أنه لم يكتب الشعر للتكسب ، وإنما كان يكتبه للتسلية وإظهار الحكمة . ومن شعره الفلسفى .

هذب النفس بالعلوم لترقى   وذر الكل فهى للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة ، والعلـ   ـم سـراج ، وحكمة الله زيت
فإذا أشرقت فإنك حى   وإذا أظلمت فإنك ميت

أما نثر ابن سينا فهو مرسل فصيح فى أغلب مؤلفاته ، وإن كانت له بعض الرسائل التى احتفل فيها بالمحسنات اللفظية ، وكان فى كتاباته الفلسفية يتبع أسلوب الفلاسفة وطريقتهم فى الكتابة ، وكان فى كل من الأنواع الثلاثة موفقًا .

العالم يحتفل بمرور ستة قرون على (مقدمة ابن خلدون) *

« ابن خلدون » هو مؤسس علم الاجتماع بشهادة علماء الغرب قدم للعالم فكرة الجبرية الاجتماعية وفلسفة التاريخ قبل « كونت » بخمسة قرون . .

يحفل تاريخ كل أمة من الأمم بأسماء أعلام تشعر الإنسانية بدينْهم عليها ويكون هؤلاء العباقرة موضع اعتزاز أمتهم وشعوبهم .

و« ابن خلدون » هو أحد العباقرة الذين يستحقون أن تزهو بهم أمتهم العربية على العالم لما أسدى ومنح من فكر وعلم .

فيقول عنه العلامة الشهيرة « لودفج جمبلوفتش » : (لقد جاء مسلم تقى فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى فى هذا الموضوع بآراء عميقة ، وإن ما كتبه ، هو ما يسمى اليوم بعلم الاجتماع) .

وتحتفل الأوساط العلمية فى العالم هذه السنة بمرور ستة قرون على كتابه (مقدمة ابن خلدون) حيث كتبها فى عام ٧٩٨ هـ ١٣٧١ م .

ولد « أبو زيد عبد الرحمن محمد بن خلدون » فى غرة رمضان من عام ٧٣٢ هـ

---

* ١٩٧٨

فى (مدينة تونس) ، وفى معاهدها العلمية ومساجدها درس العربية والقرآن والفقه والحديث .

ولما بلغ العشرين من عمره ترك تونس مسقط رأسه بعد أن مات أبواه فى طاعون جارف أهلك العديد من أهل هذه البلاد ، وحاول « ابن خلدون » أن يجد موردًا للعيش فى بيئته التى انقسمت سياسيًّا إلى إمارات متنافسة فبدأ يتقرب ويعمل فى خدمتهم ، وأمضى حوالى خمسة وعشرين عاماً متنقلا بين بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى وبلاد الأندلس يعمل فى خدمة الملوك والأمراء .

وعلى الرغم من انشغال « ابن خلدون » فى هذه الفترة بأمور السياسة والصراعات الدائرة بين القوى الحاكمة فى هذه البلاد فإنه كان يراقب كل هذه الأمور بعين دارسة مدققة ..

وأحس بعد خمسة وعشرين عاماً من الحياة وسط أتون هذه الصراعات برغبة فى التفرغ والتأمل والكتابة ، وكان قد بلغ من العمر وقتها الخامسة والأربعين ، فعكف فى إحدى القلاع ما يقرب من تسع سنوات ، يؤلف كتابه الشهير (العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) . ثم سافر بعدها إلى مصر حيث قضى حوالى أربعة وعشرين عاماً شغل فى أثنائها أكثر من منصب كبير ، بين التدريس والقضاء ، حتى توفى بها فى ٢٥ رمضان عام ٨٠٧ هـ بعد أن أتم مراجعة كتابه الضخم وأضاف إليه إضافات عديدة .

وقسم « ابن خلدون » مؤلفه إلى مقدمة وثلاثة كتب ، وجعل هذه المقدمة فى فضل علم التاريخ ، وتحقيق مذاهبه ، وإظهار أخطاء المؤرخين ، وجعل الكتاب الأول فى العمران ، ثم جمعت المقدمة والكتاب الأول مع الخطبة التى افتتح بها المؤلف الكتاب فى مجلد واحد هو ما نسميه ، (بمقدمة ابن خلدون) .

مؤسس علم الاجتماع :

فى هذه المقدمة عالج « ابن خلدون » ما نسميه الآن بالظاهرات الاجتماعية ، وكان يسميها هو (واقعات العمران البشرى) أو(أحوال الاجتماع الإنسانى) .

وكان « ابن خلدون » يرمى من وراء دراسته للظواهر الاجتماعية إلى الكشف عن القوانين التى تخضع لها هذه الظواهر فى نشأتها وما يعرض لها من أحوال .

وهكذا .. كان « ابن خلدون » هو أول من فطن إلى خضوع الظواهر الاجتماعية لقوانين ثابتة مطردة كالقوانين التى تخضع لها ظواهر الطبيعة والرياضة . وبالتالى لم يقم أحد من قبله بالكشف عن هذه القوانين ، فقد سلك الباحثون من قبله طرقاً مختلفة فى دراساتهم لهذه الظواهر ، ولم يسلك أحدهم الطريق العلمى الذى كان يسلكه علماء الرياضة والطبيعة ، واتجهوا فى علاج هذه الظواهر إلى طرق لا تقوم على الاعتقاد بأنها تخضع لقوانين ثابتة .

قبل « دوركايم » بخمسة قرون :

ويبدو مما كتبه « ابن خلدون » فى المقدمة أنه كانت لديه فكرة واضحة عن اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية وشمولها لجميع أنواع الظواهر الأخرى ، لهذا فهو لم يغادر أى قسم من أقسامها إلا وعرض له بالدراسة . فقد بين أثر البيئة الجغرافية فى هذه الظواهر الاجتماعية وفى غيرها ، وهذا ما فطن إليه « دوركايم » بعدها بخمسة قرون وسماها (المورفولوجيا الاجتماعية) أو علم البيئة الاجتماعية ، وكان يظن هو وأعضاء مدرسته أنهم أول من أدخلها فى مسائل علم الاجتماع ولم يدركوا أن « ابن خلدون » سبقهم إلى ذلك وأنه خصص لها أكثر من بابين من مقدمته .

السوسيولوجيا :

لقد وصل « ابن خلدون » بعد مشاهداته وتأملاته العميقة لشئون الاجتماع الإنسانى إلى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون ، وأنها محكومة فى مختلف نواحيها بقوانين طبيعية تشبه تلك القوانين التى تحكم علم الفلك والطبيعة والكيمياء وعلم النبات ، ومن ثم فقد رأى أنه من الواجب أن ندرس هذه الظواهر دراسة وضعية كما ندرس ، ظواهر العلوم الأخرى ، للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين ، وعلى هذا البحث وقف دراسته فى المقدمة .

ومن هذه البحوث يتألف علم جديد أسماه « ابن خلدون » علم (العمران البشرى) ، أو (الاجتماع الإنسانى) ، وهو ما نسميه الآن (علم الاجتماع) ، أو (السوسيولوجيا) .

ويقرر « ابن خلدون » فى مقدمته أن أحدًا لم يسبقه إلى دراسة ظواهر الاجتماع على هذا الوجه . وكان أهم سبب دعا « ابن خلدون » إلى إنشاء هذا العلم الجديد هو حرصه على تخليص البحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة ، ذلك أنه رأى أن كتب المؤرخين قبله قد اشتملت على كثير من الأخبار غير الصحيحة ، وأنه يجب تخليص التاريخ من هذه الأخبار ليعطى صورة صادقة لأحوال المجتمعات حتى لا تختلط الحقائق الصادقة بالأمور الملفقة الزائفة فى أذهان الناس .

الظواهر الاجتماعية متغيرة :

وفطن « ابن خلدون » إلى الخواص التى تمتاز بها ظواهر الاجتماع الإنسانى من حيث أنها لا تستقر على حال واحدة ، وأنها تختلف باختلاف الأمم والشعوب ، كما تختلف فى الأمة الواحدة باختلاف العصور ، وتصدق هذه الخواص ، فى رأى

« ابن خلدون » على شئون السياسة والاقتصاد والأسرة والقضاء وسائر أنواع الظواهر الاجتماعية بما فى ذلك الأمور الأخلاقية العامة .

وهذا طبعاً عكس الخواص الثابتة التى تحكم العلوم والطبيعة .

وكان « ابن خلدون » يعتمد فى أبحاثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع عند الشعوب التى احتك بأهلها ، إلى جانب تعقب هذه الظواهر فى تاريخ الشعوب نفسها فى العصور السابقة ، مع تعقب نظائر هذه الظواهر عند الشعوب التى لم تتح له الفرصة للاحتكاك بأهلها ، وموازنة هذه الظواهر جميعاً ، والتأمل فى مختلف شئونها للوقوف على طبائعها وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية ، وما تؤديه من وظائف فى حياة الأفراد والجماعات والعلاقات التى تربطها ببعضها البعض ، والعلاقات التى تربطها بما عداها من الظواهر الكونية ، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور ، ثم الانتهاء من هذه الأمور جميعاً إلى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر فى مختلف شئونها من القوانين .

« أرسطو » وابن خلدون » وعلم الاجتماع :

يقول « ابن خلدون » عن علم الاجتماع الذى أسسه فى مقدمته (إنه فرع فلسفى جديد لم يخطر على قلب « أرسطو » ، ولذلك نعى على الفلاسفة المتقدمين اقتصارهم على دراسة العالم العلوى والذات الآلهية ، وقولهم بآراء لا يمكن أن يبرهنوا عليها ، ووقف هو عند العالم الذى نعيش فيه ، لأن معرفتنا به أوثق من معرفتنا بعالم العقل الذى يعنى به الفلاسفة ، لأننا نستطيع بملاحظة ما فى أنفسنا وما فى عالمنا أن نجد وقائع يمكن البرهنة عليها والتماس عللها .

المنهج الجدلى فى التاريخ :

وللمنهج التاريخى عند « ابن خلدون » قواعد للبحث فى أهمية تلك الوقائع ، وارتباطها بعضها البعض ارتباط العلة بالمعلول ، وبهذا جعل « ابن خلدون » التاريخ فرعاً من فروع الفلسفة ، وجعل له موضوعاً هو الحياة الاجتماعية وما يتصل بها من حضارة مادية وعقلية للجماعة التى رأى أنها تتطور من حال لآخر ، كحال البداوة والتنقل ، وحال الأسرة الحاكمة أو القبيلة ، إلى حال الدولة المتحضرة المستقرة فى مدينة ، وعلى ذلك بحث « ابن خلدون » فى أحوال العمران ، والملك والكسب ، والعلوم والصنائع المختلفة ، بوجوه برهانية ، فكان فذاً بين فلاسفة المسلمين ، لقد قال فى مقدمته (إن كثيرين قبله حوموا على الغرض ولم يصادفوه ، ولا يحققوا قصده ، ولا استوفوا مسائله) وكان أمل « ابن خلدون » أن يأتى من بعده من يستمر فى البحث ، فيتم أبحاثه ويحقق أمله .. وتحقق أمل « ابن خلدون » ولكن على يد فلاسفة الغرب أمثال « فيكو ، وأوجست كونت ، وهربرت سبنسر » .

« ولابن خلدون » آراء طريفة فى التربية ، فقد خصص الباب السادس من المقدمة للبحث فى العلوم وأصنافها ، والتعليم وطرقه وسائر وجوهه ، كما يستعرض تاريخ الحركة الفكرية عند المسلمين ، وكذلك حاول الكشف عن العلاقة بين العلوم والآداب من جهة ، والتطور الاجتماعى من جهة أخرى لاختلاف البلاد الإسلامية فى طرق التعليم ، وطالب بتعليم القرآن للأطفال فى سن متقدمة حتى يتحقق لهم الفهم اللغوى الدقيق لمعانيه .

كما انتقد كثرة المواد وتنوع الكتب وكثرة الشروح داخلها ... ، وحاول « ابن خلدون » أن يوجه النظر إلى بعض النظريات التعليمية ، فنصح بضرورة

البدء بالقضايا العامة ثم الدخول بعد ذلك فى التفاصيل ، مع الاعتماد على الأمثلة القريبة إلى ذهن التلميذ وحياته .. ثم الوصول بعد هذه الدراسة إلى القوانين العامة .

مصلح تربوى .. وفكرى :

ومن الموضوعات الطريفة التى تعمق « ابن خلدون » فى دراستها علاقة الفكر بالعمل ، وتكوين الملكات والعادات عن طريق التقليد والتلقين المباشر والتكرار ، وهو يتوسع فى تكوين الملكة اللغوية والذوق الأدبى للبحث عن شواهد اللغة وتراكيبها ، ودراسة التراث العربى والاستعانة به فى التمرين على الكتابة .

وكان «ابن خلدون» رائداً عندما أعلن دعوته إلى الرحمة بالأطفال ، وفى معارضته استخدام الشدة معهم ، فبين الأضرار الخُلُقية والاجتماعية التى تنجم عن هذه القسوة فقال : (إن القهر والتعسف مما يقضى على انبساط النفس ونشاطها ، ويدعو إلى الكسل ويحمل على الكذب والخُبْث والمكر والخديعة ، ويفسد معانى الإنسانية) .

ومن المؤسف أن آراء « ابن خلدون » السديدة فى التربية والتعليم لم يظهر لها أى تأثير فى مجتمعه فى العصور التالية .

شهود .. منهم :

لقد كان «ابن خلدون» صادقاً عندما قال إن أحداً لم يسبقه إلى هذه الدراسة ، لأن « أوجست كونت » جاء بعد خمسة قرون ليقول إنه مؤسس علم الاجتماع ، والحقيقة أن « ابن خلدون » يحظى بهذا الشرف ، حتى أن علماء الغرب أنفسهم شهدوا بهذه الريادة .. فيقول (العلامة كولوزيو) (إن الفضل فى تقرير مبدأ الجبرية الاجتماعية يعود إلى « ابن خلدون » قبل رجال الفلسفة الوضعية .

ويرى الأمريكى (فارد) أن « مونتسكيو » ليس هو صاحب مبدأ الحتمية الاجتماعية (فقد قال « ابن خلدون » ذلك ، وأثبت خضوع الظواهر لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بمدة طويلة .. وأعلن هذا فى القرن الرابع عشر) .

ويقول العلامة «شميث» لقد تقدم «ابن خلدون» فى علم الاجتماع إلى حدود لم يصل إليها «كونت» فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.. ولو أطلع المفكرون الذين وضعوا علم الاجتماع ، على مقدمة « ابن خلدون » واستعانوا بها ، لتقدموا بهذا العلم أسرع بكثير مما تقدموابه ، فقد اكتشف ذلك العبقرى العربى ، مناهج ، واستحدث دراسات عديدة فى هذا المجال) .

ويقول « توينبى » فى كتابه دراسة للتاريخ (أن فلسفة التاريخ التى تخيلها « ابن خلدون » ثم بسطها فى كتبه هى بدون شك أعظم نتاج أبدعه أى ذهن فى أى عصر وفى أى زمن) .

وقال « جان مارسيه » (إن مقدمة ابن خلدون هى أحد المؤلفات الأكثر ضرورة والأكثر إثارة من بين المؤلفات التى قيض للعقل البشرى إنتاجها) .

ابن خلدون وكونت :

لقد رأى كل من «ابن خلدون» ، « وأوجست كونت » أن هناك ضرورة لإنشاء دراسة جديدة للظاهرات الاجتماعية. ، وأن تكون هذه الدراسة وضعية ، ترمى إلى الكشف عن طبيعة هذه الظواهر وما تخضع له من قوانين .

فهما متفقان فى موضوع الدراسة ، وهى الظواهر الاجتماعية ، كما اتفقا فى الهدف ، وهو التوصل إلى طبيعة هذه الظواهر والقوانين التى تحكمها ، كما اتفقا فى منهج الدراسة ، حيث كان منهجها وضعيًا قائماً على الاستقراء والملاحظة .

هذا .. على الرغم من أن سبب الدراسة عندهما كان مختلفاً تماماً .

فكان سبب هذه الدراسة عند « ابن خلدون » هو حرصه على تخليص البحوث
يخية من الأخبار الكاذبة ، ووضع منهج للباحثين التاريخيين يميزوا بين الصحيح
ـ الصحيح من الأخبار .
أما «كونت » فكان يهدف من دراسته إلى إصلاح المجتمع وتخليصه من عوامل
ىطراب والفساد ، والقضاء على التناقض بين التفكير العلمى والتفكير
فيزيقى داخل مجتمعه .

خلدون والتاريخ الإسلامى :

ويرى « د . على عبد الواحد وافى » أن أصالة « ابن خلدون » . تبدو فيما أجراه
تحقيقات علمية هامة على تراث أسلافه من المؤرخين الذين كتبوا تاريخ العرب
سلام ، «كابن هشام » ، «وابن اسحق » والواقدى ، والطبرى ، وابن
ر ، فاستبعد بعضها على أنه محض اختلاق غير ممكن الحدوث كما شك فى
ة كثير منها . وقد بنى تحقيقاته هذه على ما قرره فى مقدمته بصدد الاجتماع
سانى ومناهج البحث العلمى .
ويحفل كتاب « ابن خلدون » فى التاريخ ببحوث تاريخية جديدة استمدها من
مداته وقراءاته الخاصة . حيث يُعد هذا الكتاب أهم مصدر لتاريخ البربر فى
، أفريقيا ، كما أنه أكثر هذه المصادر أصالة وتحقيقاً .

و – بيوجرافيا :

لم تقتصر عبقرية « ابن خلدون » على مجال كتابة التاريخ والدراسات الاجتماعية
برع كذلك فى (الأوتو – بيوجرافيا) ، أى ترجمة المؤلف لنفسه وهو ما يعرف
السيرة الذاتية ، ويعد « ابن خلدون » بارزاً فى هذا الفن عن غيره من مؤرخى

العرب والمسلمين بما كتبه عن تاريخ حياته فى كتابه (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً). ويضع المؤرخون (تعريف) «ابن خلدون» فى صف واحد مع اعترافات «الغزالى» فى كتابه (المنقذ من الضلال)، واعترافات «جان جاك روسو» فى كتابه (الاعترافات).

ولا يقتصر «ابن خلدون» فى كتابه (التعريف) على تاريخ حياته .. بل يذكر كذلك كثيراً مما يتصل بهذا التاريخ، من حوادث ووثائق وخطب ورسائل وقصائد، ويصف أحوال كثير من المجتمعات والنظم التى كانت لها علاقة به، ويصور أحوال العصور التى عاشها أحسن تصوير. كما يترجم لمعظم من جاء ذكرهم فى كتابه.

«ابن خلدون» إمام، ومجدد فى أسلوب الكتابة العربية :

ويُعد «ابن خلدون» من كبار أئمة الأدب وأعلام البيان العربى .. ومن أبرز المجددين فى أسلوب الكتابة العربية، فقد استخدم فى كتابة الرسائل العادية والحكومية منذ أن تولى عمله ككاتب سر لسلاطين المغرب، أسلوباً جديداً يمتاز بالسهولة والوضوح، والتعبير الدقيق عن الحقائق وقوة التدليل، وترابط الفكرة وحسن الأداء والتناسق، وتخير المفردات والتراكيب العربية السليمة، وخلص من قيود السجع ومحسنات البديع التى كان النثر العربى مكبلاً بها فى هذا العهد.

وكان أسلوبه هذا .. إحياءً للأسلوب العربى الذى امتازت به العربية فى عهودها الذهبية الأولى .. ولما كانت بحوث «ابن خلدون» فى الاجتماع قد انتهت إلى أفكار وآراء جديدة لا يوجد فى الكلمات المألوفة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً، أو يحتاج التعبير عنها لاستخدام الألفاظ والعبارات فى غير ما وضعت له عن طريق

من طرق المجاز أو الكناية ، فقد اضطر لكى يعبر عن هذه الأفكار والآراء إلى أن يشتق من بعض الأصول العربية مفردات لم يسبق اشتقاقها حتى أنه استخدم كثيرًا من المفردات والعبارات فى معان علمية لم يسبق استعمالها فيها ، وإن كانت تمت إلى معانيها الأصلية بعلاقة من العلاقات المقررة فى علم البيان .

٢٠٠ عام على وفاة « جان جاك روسو » *

عاش حياته عاشقًا .. ورأى خلاص العالم فى الحب

احتفلت الأوساط الثقافية فى العالم خلال عام ١٩٧٨ بمرور مائتى عام على وفاة الفيلسوف الفرنسى الشهير « جان جاك روسو » ، صاحب إنجيل الثورة ، ومؤسس أشهر النظريات السياسية التى تقوم على الحب والاتفاق ، وهى نظرية (العقد الاجتماعى) .

وقد استعد المجتمع الثقافى فى فرنسا لهذه المناسبة منذ أكثر من عام ، فعقدت الندوات والدراسات عن هذا المفكر العظيم وخصصت الجامعات أبحاثاً ورسائل تُلقى أضواء جديدة على شخصيته وفكره وفلسفته .

ويُعد « روسو » واحداً من أكبر مفكرى أوربا فى القرن الثامن عشر ، والذى ألهمت كتاباته زعماء الثورة الفرنسية وتركت بصماتها على جيل بأكمله من المفكرين عرف بالجيل (الرومانسى) .

وكان « روسو » من أول من حققوا التوافق بين المسيحية والفكر العقلى فيما عرف بعد ذلك بالديانة المدنية » .

وفى المجال السياسى تجاوزت نظرية « العقد الاجتماعى » النزعة المدنية الليبرالية

* يوليو ١٩٧٨ .

لدى المفكرين الإنجليز ، والنظرة الوضعية عند « مونتسكيو » صاحب نظرية (الفصل بين السلطات) .

وجاءت نزعته فيما يتعلق بالتربية الطبيعية وبحثه عن اتفاق مقبول وحر بين التلاميذ ومدرسيهم ، نواة للمذهب الحديث فى مجال التربية .

وقد استطاع أن يعرض ذلك كله بشكل واضح ، ذلك أنه لم يقدم أفكاره فى شكل أبحاث فلسفية فحسب ، لكنه تجاوزها إلى الروايات والانطباعات التى تعكس آراءه وأفكاره .

روسو والبحث عن الأمومة :

لم تكن « سوزان بيرنارد » أم « جان جاك » تدرى يوم ولدته للدنيا فى الثامن والعشرين من يونيو فى عام ١٧١٢ أنها قد أهدت إلى العالم مفكراً وضع سعادة الإنسان هدفاً يسعى له طوال حياته . ولم يمهلها القدر حتى تسعد بهذا الصغير فاختطفها الموت منه ، وغادرت الدنيا وتركته وحيدًا لم يزد عمره عن بضعة أيام .

وتفتحت عينا « جان » الصغير ، وتفتح قلبه وعقله فى ظمأ إلى منهل الحب والحنان الكبير (الأمومة) .

وعاش (روسو) الطفل والفتى والشاب يبحث عن خلاص للبشر من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية التى يعانيها .. ولم يجد خلاصاً من كل هذا إلا فى الحب .

وقامت على يديه أول نظرية سياسية تعتمد على الود والتفاهم والاتفاق بين الناس ، (نظرية العقد الاجتماعى) .

لقد ولد « جان » فى مدينة (جنيف) لأب متوسط الحال ، ونال حظًا

متواضعاً من التعليم ، ثم التحق بأكثر من عمل ، ولكنه لم يجد رغبة فى الاستمرار فى أى من هذه الأعمال . فترك جنيف على غير هدى .

وبعد طول الضياع حط « جان » رحاله عند سيدة محسنة ذهب إليها بتوصية من أحد أصدقاء أبيه كى تساعده فى العثور على عمل مناسب ، وكان ذلك فى عام ١٧٢٨ ، ورحبت (مدام دى فرانس) به فى قصرها الكبير فى مدينة (انسى) وساعدته على الالتحاق بأحد المعاهد التبشيرية .. لكنه ما لبث أن عاد إليها فاشلاً حيث افتقد الهدوء الذى تبحث عنه روحه دائماً ، وكانت « مدام دى فرانس » ، سيدة رائعة الجمال ، ففتن الفتى « جان » بجمالها ورقتها ، وأسره حنانها الذى غمرته به حتى أنها كانت تناديه (ولدى) وكان يناديها (ماما) .

ويصف لنا « روسو » جمال « مدام دى فرانس » فى عبارة رقيقة ، يقول عنها إن جمالها من ذلك النوع الباقى الذى يبدو فى المحيا أكثر مما يبدو فى التقاسيم ، كانت ذات هيئة ناعمة جذابة ، ونظرة ساحرة ، وبسمة ملائكية ، وكانت صغيرة القد ، أميل إلى القصر ، عبلة نوعاً ، .. ولكن دون قبح .. بيد أنه لم يكن أجمل منها رأساً ، ولا أجمل صدراً ويدين ومعصمين .

وكانت (مدام دى فرانس) تمثل فى حياة « روسو » أمًّا ، ومربية ، وحامية وصديقة ، ثم كانت له أخيراً عشيقة ، وفى الحقيقة أن ما كان بين « روسو » ومدام « دى فرانس » ليس بالحب الجنسى الخالص ، ولا هو بالحب البنوى الخالص ، ولا هو بالصداقة الحميمة فحسب ، بل كان مزيجاً من ذلك كله ، مقروناً بنوع من عبادة الجمال والسحر ، وعاطفة عميقة من العرفان وشكر الصنيع .

وعاش « روسو » إلى جوار « مدام دى فرانس » حوالى خمسة عشر عاما قضاها فى القراءة والدرس ، وكان يعمل فى أثنائها فى تدريس الموسيقى ونسخ النوت الموسيقية — واتصل خلالها بعدد كبير من الأدباء والمفكرين ، فقد كانت

« مدام دى فرانس » واحدة من محبات الأدب والفن والفكر والموسيقى ، وكان بيتُها قبلة لعددٍ من أعلام عصرها ..

وهكذا أعطت (مدام دى فرانس) ، (لروسو) الحب والأمان ، كما أعطته فرصة طيبة للدرس والتحصيل ، وقابل « روسو » ذلك بالوفاء والإخلاص ، ويبدو هذا واضحاً فيما كتبه عنها فى اعترافاته ، فقد كتب عنها صفحات رائعة تفيض حبا ووفاءً .

ذهب « روسو » إلى باريس فى عام ١٧٤١ وكان فى التاسعة والعشرين بعد أعوام شقاء قضاها بين مدن وقرى سويسرا وإيطاليا وفرنسا لكسب عيشه .

وفى باريس ينزل فى خان حقير – اسمه (سان كنتان) – فيتعرف على الخادمة (تريز لوفاسور) وكانت فتاة كثيرة الغباء لا تحسن القراءة ولا الكتابة ومع ذلك كان كثير الإعجاب بها ، ناظرًا إليها بعين الحب ، راضياً بجمالها ، ورقة صوتها ، متجاوزاً عن عيوبها وفقرها متغاضياً عما يفصله عنها من عبقرية ونبوغ ، وعاشا معاً نحو اثنتى عشرة سنة ، أنجبت له خلالها خمسة أطفال سلمهم إلى ملجأ اللقطاء .

وخلال وجوده فى باريس تعرف على « ديدرو » (رائد الموسوعيين) الفرنسيين والذى كان يشتغل وقتها فى إعداد أول موسوعة فرنسية ، وقد أعد له « روسو » الجزء الخاص بالموسيقى فى هذه الموسوعة .

وبدأ « روسو » يدخل عالم الفكر عن طريق مسابقة لإحدى الجامعات عنوانها (هل أدى تقدم العلوم والفنون إلى إفساد الأخلاق أو إلى إصلاحها) ، وقد نال عنها الجائزة الأولى ، وكانت آراؤه فى هذا الموضوع مبتكرة ، وتجلت فى هذه الرسالة عبقرية « روسو » التى وصلت به إلى كتابيه (إميل) و (العقد الاجتماعى) .

حيث كان « روسو يرى أن الإنسان خيِّر بطبعه ، إلا أن المدنية أفسدته .

ثم نشر « روسو » بعد ذلك بحثًا آخر عن نشأة التفاوت بين الناس ظهر فيه

نضج شخصيته ، ووضوح فلسفته .

ثم توالت أعمال « روسو » العظيمة (الواز الجديدة) (والعقد الاجتماعى) (وإميل) ، ثم (اعترافاته) التى تحدث فيها عن آرائه فى كل نواحى الحياة . وكان « روسو » قد سافر إلى لندن فى عام ١٧٦٥ فى صحبة الفيلسوف الإنجليزى « ديفيدهيوم » الذى يُعد واحداً من أبرز أتباع النزعة التجريدية ، ومؤسس الفلسفة الظاهرية ، وكان « هيوم » فى زيارة لفرنسا .

ولكن « روسو » لم يلبث أن عاد إلى باريس حيث توفى بها .

إمام الحركة الرومانسية :

ويعتبر الدارسون روسو رائداً للحركة الرومانسية الحديثة . وتتلخص آراؤه فى أن الإنسان يجب أن يعود إلى حالته الطبيعية والفطرة الأولى ، فالتقدم المادى والتقدم العلمى اللذان أحرزتهما الإنسانية خلال تاريخها الطويل لم يحققا للإنسان سعادته ، بل أحالاه إلى عذاب وشقاء ، وعاش الإنسان سعيداً فى الجماعات الصغيرة المستقلة التى كانت تسودها روح الأسرة ، وكانت حياته بسيطة بلا جشع أو خوف أوكراهية ، وهو بهذا لا يدعو إلى إلغاء الحضارة الإنسانية والعودة الى البدائية ، والبربرية ، إنما يدعو إلى توجيه الحضارة الإنسانية نحو غاية عليا يمكن أن تحقق للإنسان سعادته .

وكان « روسو » يجد سعادة الإنسان فى التعاطف والتحاب ، كما أنها تكمن فى الزهد فى مباهج الحياة العصرية ورفاهيتها التى تحمل من المفاسد أكثر مما تحمل من المحاسن . فالسعادة فى رأيه هى أن يتعاون الناس فى السراء والضراء ، وأن يتخلى الفرد عن أنانيته فى سبيل سعادة المجتمع والإنسان .

وتقوم نظرية « روسو » المعروفة (بالعقد الاجتماعى) على أساس الاتفاق الحر

بين الأفراد . وقد افترض « روسو » أولا أن الإنسان خيِّر بطبيعته ، وأن فيه من العواطف النبيلة ما يجعله قادراً على التغلب على قوى الشر والأنانية .

لقد أحب « روسو » الفضيلة بشغف وبساطة شديدين ، عبر عنهما بقوة وصراحة كبيرة ، ووجه نداءاته إلى القلب ، والعواطف الإنسانية ، فملك على الناس مشاعرهم ، وتحمس قراؤه لدعوته الجديدة إلى العاطفة الأخلاقية ، وكان أثرها عميقاً فى نفوس الناس .

أما فى مجال التربية ، فيرى « روسو » أن يترك للطفل فرصة تنمية مواهبه الطبيعية دون أن تعطلها مؤثرات الحضارة الفاسدة ، فالتربية تنبع من داخل النفس ولا تأتى من قراءة الكتب . وهو يقول إن هدف التربية الأسمى هو أن يتعلم الإنسان كيف يعيش ، وتُعد آراء « روسو » فى التربية هى الضوء الأول على طريق التربية الحديثة .

ومن أشهر أعمال « روسو » (الواز الجديدة) من ستة أجزاء نشرها فى عام ١٧٦٣ .

ثم (إميل) أو(التربية) فى أربعة أجزاء ١٧٦٢ ، (وروسو يحاكم جان جاك) ، و(الحوارات) ، و(الاعترافات) ، و (أحلام متنزه وحيد) ، ثم (العقد الاجتماعى) أومبادئ القانون السياسى ١٧٦٢ .

إلى جانب عدد من المقالات والدراسات عن السياسة والموسيقى من أشهرها مقاله الذى حصل به على جائزة (أكاديمية ديجون) ١٧٥٠ ورسالته حول أساس عدم المساواة بين الناس .

ورسالته الشهيرة عن الموسيقى الفرنسية ١٧٥٣ والموجودة فى الجزء السابع من الموسوعة الفرنسية .

وهناك رسائل أخرى مثل (مكتوبة من الجبل) ١٧٦٤ .

ومن أعظم مؤلفات « روسو » الموسيقية (قاموس الموسيقى) ١٧٦٨ والذى ترجم لعدد من لغات العالم .

لقد أنهى يوم ٢ يوليو ١٧٧٨ أسطورة حياة « جان جاك روسو » .. ولكن أسطورة فكره وعبقريته تولد مع كل بحث جديد يكتب عنه .. فمازال الفكر الإنسانى يواصل دراسة تراثه العظيم فى السياسة والاجتماع وعلم التربية واعترافاته الصادقة فى عالم الحب .

مرور ٢٠٠ عام على وفاة « فولتير » *

رفض رجال الكنيسة الصلاة على جثمانه
ونقله رجال الثورة إلى مقبرة العظماء

يوافق يوم ٣٠ مايو من هذا العام (١٩٧٨) ذكرى مرور مائتى عام على وفاة المفكر الفرنسى الكبير « فرانسوا فولتير » ، وتقول الموسوعة البريطانية فى تقديمها لشخصية « فولتير » إنه (يُعد واحدًا من أعظم الكتاب الفرنسيين الذين مازالت أعمالهم تُقرأ فى جميع أنحاء العالم كفارس جرىء ، فى وجه الطغيان والتعصب والقسوة ، وهو يمثل العقلية الفرنسية المتحررة القادرة على النقد والتهكم والهجاء . كما تمثل أعماله نماذج مثالية تتمنى كثير من الأقلام أن تحذو حذوه)

أما حياته الطويلة فتستغرق السنوات الأخيرة من العصر الكلاسيكى والسنوات الأولى للثورة الفرنسية ، وقد استطاع خلال هذه الحياة أن يؤثر على اتجاه الحضارة الأوربية .

ويعرف المواطن العربى اسم « فولتير » من خلال أعماله التى ترجمت إلى العربية مثل رواية (زاديك) التى ترجمها د . « طه حسين » ، تحت عنوان (القدر) ، و(الرسائل الفلسفية) ، و(القاموس الفلسفى) .

* مايو ١٩٧٨

ابن غير شرعي :

وُلد « فولتير » في ٢١ نوفمبر من عام ١٦٩٤ ولم يُعرف أبوه الشرعي ، وعاش في كنف عائلة متوسطة الحال ، ولم يكن يحمل في قلبه أي حب لأبيه الرسمي ولا أسرته . أما أمه فلم يشر أبدًا إليها ، ويقال إنها ماتت وهو صبي في السابعة .

وهكذا لم يحس « فولتير » منذ طفولته بأي انتماء ، ولم تتحرك في قلبه هذه الأوتار التي كثيراً ما تحرك وُجْدان الإنسان من حب لأهله ووالديه ودينه .

وتلقى « فولتير » تعليمه في (كلية لويس الأكبر اليسوعية) ، وهي إحدى مدارس « الجوزويت » في باريس ، وبها بدأ حبه للأدب والمسرح والحياة الاجتماعية . كما اكتسب من هذه المدرسة النظرة الكلاسكية ، وإن كانت تعاليم الدين لم تترك أثرها في نفسه ، بل إنها أثارت فيه نزعة التهكم والشك .

زواج الأدب والفلسفة :

بدأ « فولتير » حياته الأدبية كاتباً وشاعراً دراميًّا .. وظهرت ميوله الفلسفية من خلال كتاباته الأدبية ، فعرفه الشعب الفرنسي شاعراً مسرحيًّا وأقبلوا بشغف شديد على قراءة أعماله مثل (تاريخ الملك شارل الثاني عشر) ، و(ملحمة هنري الرابع) التي يشبهها النقاد في الأدب الفرنسي (بالإلياذة) في الشعر الروماني ، (والفردوس المفقود) « لميلتون » في الأدب الإنجليزي .

ويذهب بعض المفكرين إلى القول بأن « فولتير » لم تكن له اهتمامات سياسية في بداية حياته الفكرية ، حتى أن (ملحمة هنري الرابع) كانت كلها ثناءً على الملك وذكر لمناقبه ، ولم يشر من بعيد أو قريب إلى مساوئ النظام الملكي في فرنسا .

وحتى رسائله الفلسفية التي نشرها في عام ١٧٣٤ كانت مجرد عرض للنظام

السياسى للحكومة الإنجليزية ومراقبة السلطات فيها ، واتضح من هذه الرسائل إعجاب « فولتير » بالحكومة الإنجليزية ونظامها الاقتصادى الذى لا يثقل كاهل الفلاح بالضريبة ، كما أبدى إعجابه بالنظم الاجتماعية التى كانت معروفة آنذاك فى إنجلترا والتى كانت تساوى بين الناس ولا تميز بينهم إلا بالتفوق فى العمل .. وكانت هده جرأة من « فولتير » أن يعرض هذه الأفكار والآراء التى تدعو إلى استخدام العقل فى الحكم على الأمور خاصة الدينية منها . وكان « فولتير » يسخر دائماً من تعصب رجال الدين ، ويسخر سخرية لاذعة من تشاؤمهم فيما يتعلق بالغيبيات ، فقد كان « فولتير » مثل سائر المفكرين والأدباء فى عصره يدعو إلى الأخلاق المتحررة ، وكان يدعو إلى الاستمتاع بمباهج الحياة ، لأنه وجد أن حياة الفقراء هى الزهد والتقشف ، وأن حياة الأغنياء هى الترف بعينه .

مفكر يمجد الإسلام :

وتتضح فلسفة « فولتير » الاجتماعية فى بحثه عن (التقاليد وروح الأمم) الذى قدم فيه عرضًا شائقاً متنوعاً عن تقاليد الأمم المختلفة ، والذى نشره كملحق لكتابه (عصر لويس الرابع عشر) ، الذى نشره فى برلين فى عام ١٧٥١ ، وقدم فيه دراسة عن تاريخ الأمة الفرنسية فى هذا العصر .

ويلاحظ فى بحث (التقاليد وروح الأمم) أن « فولتير » لا يقدم تفسيراً فلسفيا عميقاً لأسباب تنوع هذه التقاليد وتطورها فى مختلف البلاد على مر العصور ، ويشير فى هذا البحث إلى التقاليد العربية والإسلامية على اعتبار أنها تقاليد قريبة من التفكير السليم . كما تحدث عن الحرب الصليبية وقال إنها كانت حماقة من جانب الغرب .

أما نزعة « فولتير » الإلحادية ، فقد حاول أن يخفيها ، فلم يواجه بها مجتمعه

علانية ، فكان دائماً يُحمِّل الملوك والقساوسة مسئولية الشرور والكوارث التى حاقت بالإنسانية . وبسبب محاكم التفتيش فى العصور الوسطى ، كان دائماً يتهم رجال الدين واللاهوتيين بأنهم يقدمون للناس أفكاراً لا تحقق للإنسانية سعادتها ، بل تتسبب فى شقائها وتعاستها .

وكانت قصيدته الشهيرة عن « جان دارك » أوضح كتاباته عن هذه النزعة الإلحادية ، حيث سخر من الكنيسة الكاثوليكية ومن تقاليدها ، كما تجلت هذه النزعة الإلحادية كذلك فى (القاموس الفلسفى) الذى صدر فى عام ١٧٦٤ .

القانون سيد الحكام :

أما فى المجال السياسى فيعتبر الدارسون (فولتير) ناقداً سياسيًّا واجتماعيًّا أكثر منه فيلسوفاً للمجتمع والسياسة ، فهو يرى أن حرية الفكر هى الحرية الأولى التى يجب أن يحصل عليها الإنسان ، والتى يجب أن يدافع عنها أى مفكر .

وكان « فولتير» يقف دائماً ضد الاستبداد فى مجال السياسة ، وضد التعصب فى مجال الدين ، ولكنه كان يحيط كتاباته بالغموض من كل جانب ، وهو لا يقدم لنا نظرية فلسفية متكاملة فى الدين أو السياسة ، ولا يطالب بالجمهورية ، بل يطالب بالديمقراطية .

كما يؤيد الأرستقراطية الفكرية ، وينظر إلى الشعب على أنه مجموعة من الرعاع .

ويقول « فولتير» إن هناك ثلاثة وسائل لحكم الناس : الأولى : هى الحكم بالقانون ، والثانية : هى الحكم بالدين ، والثالثة : هى الحكم بالحديد والنار .

وهو لا يؤيد إلا الطريقة الأولى ، وإن كان يرى أن على مفكرى الأمة وعقلائها وضع القوانين ، لأنه يرى أن الشعب سيظل مجرد قطيع تحكمه قوانين الغوغائية .

كانديد :

لقد اتضحت نزعة « فولتير » إلى الفلسفة العملية فى روايته الشهيرة (كانديد) ، أو البرىء .. وهى قصة خيالية كتبها فى عام ١٧٥٨ ، وهى تحكى قصة شاب كان يدرس (الفلسفة الميكيافيلية) ، ووصل بتفكيره إلى أن العالم الذى يعيش فيه ، ليس هو أفضل العوالم الممكنة ، فاعتزل مع أصدقائه فى مكان بعيد على أحد الشواطئ حيث اكتشف أن سر السعادة هو أن يزرع الإنسان حديقته .

من هذه القصة نلمس رؤية « فولتير » إلى العالم ، القائمة على الحرية والعمل والمساواة .

مؤلف السبعين كتاباً :

لقد جمعت آثار « فولتير » من القصص والكتب التاريخية والفلسفية والمسرحيات ، والرسائل فى ٧٠ مجلدا نُشرت بعد وفاته ، ومازالت بعض رسائله غير المنشورة تظهر بين الحين والحين ومن أشهر قصصه :

- رحلات البارون جنجان ١٧٣٩ .
- زاديك ١٧٤٧ .
- كنديد ١٧٥٩ .
- الأبيض والأسود ١٧٦٤ .
- جانو وكولان ١٧٦٤ .
- أميرة بابيلون ١٧٦٨ .

أما كتاباته التاريخية وهى مبنية على المفهوم الحديث للتاريخ فمن أهمها :

- تاريخ شارل الثانى عشر ١٧٣١ .

– عصر لويس الرابع عشر ١٧٥١ .
– تاريخ الإمبراطورية الروسية تحت حكم بيير الأكبر ٥٩–١٧٦٣ .
– نفائس عصر لويس الخامس عشر ١٧٦٨ .

وتضم مكتبة « فولتير » كذلك مجموعة من الرسائل والكتب الفلسفية مثل :

– رسائل فلسفية ١٧٣٤ .
– عناصر فلسفة نيتون ١٧٣٨ .
– مقالات عن العادات ١٧٥٦ .
– القاموس الفلسفى ١٧٦٤ .
– فلسفة التاريخ ١٧٦٥ .

أما أشهر مسرحياته فهى :

– زايير ١٧٣٢ .
– آلترير ١٧٣٦ .
– ميروب ١٧٤٣ .

فيلسوف الحرية :

لقد رفض رجال الدين أن يدفنوا « فولتير » عند وفاته عام ١٧٧٨ فى باريس حسب الطقوس المسيحية . لكن جثمانه انتقل إلى البانثيون (مقبرة العظماء) فى عام ١٧٩١ بعد قيام الثورة . واحتفلت الأوساط الثقافية الفرنسية عام (١٩٧٨) بمرور قرنين على وفاته بعرض أفكاره وأشهر مؤلفاته وإقامة الندوات والدراسات عن فلسفته وأعماله .

لقد ترك « فولتير » للإنسانية مجموعة من المؤلفات عاشت برغم مرور قرنين مرجعاً هاما فى يد الدارسين لتاريخ الدفاع عن الحريات فى كل أنحاء العالم .

خمسة عشر عاماً على وفاة العقاد*

أراد أن يكون قائدًا للجيش المصرى
فأصبح قائدا للفكر المصرى ..

(فى كل كاتب شىء من طبيعة النبوة لأنه يحمل رسالة خاصة من لدن الحياة إلى إخوانه فى الحياة . ولهذا لابد للكاتب من موهبة خارقة يحس مالا يحسه سواه من الناس ، ويفهم بها مالا يفهمون من أسرار هذه الدنيا وعجائب الغيب والشهادة ..) جاءت هذه الكلمات فى كتاب آخر كلمات العقاد ..

لقد كان يحلم دائماً فى طفولته أن يصبح جنديًّا .. وكم جلس وحيداً يتخيل نفسه وقد لبس لباس الحرب ، وحمل السلاح ، وهب يحارب من أجل حقه .

وكانت لعبته المفضلة فى سنوات صباه الأولى هى لعبة الجيوش ، وفيها ينقسم الأطفال إلى فريقين متصارعين ، وكان (عباس) دائماً هو قائد الجيش المصرى .

وفى هذه اللعبة البريئة مارس الفتى الصغير أحب هواياته إلى نفسه ، وهى الخطابة .. فقد كان على قائد كل من الفرق المتصارعة أن يلقى خطبة حماسية فى جنوده قبل بدء المعركة تضم عدداً من الأبيات الحماسية ، وهكذا فجر العبث الصبيانى ينبوع الخطابة والشعر على لسانه وهو لم يبلغ بعد العاشرة من عمره .

لكن الأقدار لم تشأ أن يصبح (عباس محمود العقاد) فارساً فى ميدان

* مارس ١٩٧٩

الحرب ، أو جنديًّا فى صفوف الجيش . فتحولت طاقته إلى ميادين أخرى للنضال ، وصفوف أخرى للصراع ، وكما تركت هذه اللعبة بصماتها على شخصية العقاد تركت ملامح بيئته آثارها عليه .. فقد حمل الفتى الذى وُلد فى يونيو عام ١٨٨٩ من مدينة أسوان عظمة معابدها وشموخها ، وقوة شلالها وتدفقه .

وكان الفتى إلى جانب صفاته الخلقية التى جمعت الشهامة والشجاعة وعزة النفس متفوقاً فى دراسته بارزاً بين أقرانه بذكائه ومثابرته ، حتى أن الجميع تنبئوا له بالمستقبل المرموق .

وحصل « عباس » على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية فى عام ١٩٠٣ وعادت أحلامه بالجندية تتراقص أمام خياله مرة أخرى ، ولكن أحوال أسرته المالية . تقف بينه وبين هذه الأمنية ، ويضطر لبدء حياته العملية ، فالتحق بوظيفة صغيرة فى مدينة قنا ، وبرغم حداثة سن « العقاد » فى هذه الفترة ، فإنه كان دائم الاطلاع على الكتب والصحف العربية والأجنبية التى تصل إلى يده . وتساعد الظروف « العقاد » .. فينتقل إلى مدينة الزقازيق حيث يقترب من القاهرة ، وتبدأ رحلته الطويلة العريضة مع الثقافة الحرة .. ويدخر كل ما يتبقى من دخله المتواضع ليشترى ما تهفو إليه نفسه من كتب . واستطاع بعد سنوات قليلة أن يقتنى عدداً من عيون الفكر العربى والعالمى ، التى أتاحت له فرصة أكبر ليشبع نهمه إلى المعرفة . كما أتاحت له زياراته المتكررة للقاهرة البدء فى مكاتبة الصحف ، والتعرف على الشاعرين « إبراهيم المازنى ، وعبدالرحمن شكرى » اللذين خاضا معه غمار معركة التجديد فى موضوعات الشعر العربى وتخليصه من القوالب التقليدية والألفاظ المستهلكة ، وذلك باعلان مدرسة الديوان ..

ومنذ عام ١٩٠٧ احترف العقاد الكتابة فى الصحف ، وكتب فى عديد من الدوريات التى كانت تصدر وقتها .

وكانت مقالاته تعالج الموضوعات السياسية والثقافية والعامة وإن كان أبرع ما يكون فى كتابة المقالات الفلسفية والأدبية .

ويقول الدكتور « شوقى ضيف » عن « العقاد » ككاتب (كان العقاد فى عمله الصحفى والأدبى يحتفظ لنفسه باستقلاله الشخصى فى الرأى كما يحتفظ بكرامته إلى أقصى حد ، ومن المحقق أنه لعب دوراً خطيراً فى كرامة الأدب والأدباء . فقد كانوا قبل عصره يحيون حياة لا يشيع فيها الاستقلال ، إذ كانوا يشعرون أنهم فى حاجة إلى من يحميهم حتى يصيبوا ما يريدون من العيش والمنزلة الأدبية ، لكن « العقاد » بدأ حياته مستقلا عن الأحزاب ، لا يريد أن يحميه هذا الحزب أو ذاك ، ولا يفكر فى أن يرعاه هذا العظيم أو ذاك ، بل مضى يحتمل صنوفا من العلة والمشقة والعسر ، ولم يستطع شىء أن يعبث بكرامته وعزة نفسه) .

ومضى « عباس العقاد » يشق طريقه بأيام عمل وليالى تحصيل وبحث ، ولم تكن كل هذه الأيام يسراً ، بل كان أغلبها ضيقاً وحاجة ومرضاً .. فقد تولى « العقاد » عشرات الأعمال لكنه قضى عشرات الشهور بلا وظيفة تعود عليه بما يعينه على الحياة .

ويقول الدكتور لويس عوض عن « العقاد » (إنه كان أول نموذج عرفته مصر لما يمكن أن نسميه بالأديب المتفرغ ، فحين نستعرض تاريخ البلاد الفكرى والأدبى من « رفاعة الطهطاوى » إلى « طه حسين » لا نكاد نجد اسم علم واحد من الأعلام كان يكسب قوته من فكره وأدبه إلا إذا كان من تلك الطبقة المترفة التى أغناها مالها عن العمل .. « والعقاد » وحده هو نموذج الكاتب العصامى الذى شق طريقه فى الحياة بقلمه ، وأبى أن تكون له صناعة أخرى غير صناعة القلم يعتمد عليها فى رزقه) .

وكانت القراة ، وتمثل الفكر العربى ميدان نضاله الأكبر ، كأنما أراد فى حزم

أن يستدرك ما فاته من إتمام تعليمه وإحراز درجة جامعية ، فإذا هو يحطم فى قوة قيود البرامج الدراسية والتخصصات العلمية . وينفتح على مصادر المعرفة شرقية وغربية .

ولا يختلف اثنان فى أن « العقاد » هو أكبر كاتب عربى معاصر خالط الأوربيين فى أدبهم وعلومهم وفلسفاتهم الميتافيزيقية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، وصنع بعبقريته جسراً مهما لعبور العقلية العربية الحديثة من شاطئ الركود إلى شاطئ النهوض بفكرنا فى جميع اتجاهاته .

كما يعترف تاريخ الثقافة العربية « للعقاد » بالفضل العظيم فى المحافظة على الوحدة اللغوية لتراثنا العربى الحديث .

العقاد والفكر الدينى :

لم تستطع مَلَكات « العقاد » العقلية أن تطغى على ملكاته الروحية . فقد نزع نحو المُثل العليا .. وأخذ فى كتاباته الدينية موقفاً ثابتاً إزاء معرفة الحقائق الكونية مقترباً من منهج الصوفية ، وكان بهذا الوعى الكونى يؤمن بوحدة الكائنات ووحدة الخلق فيها .. وعلى نحو ما آمن بوحدة الكائنات آمن بضرورة الشر فى الوجود ، كضرورة الخير ، وأنه جزء لا يتجزأ من كيانه ، وأنه الخطوط القاتمة للوحته ، ولولا هذا ما وضحت خطوط الخير الزاهية . وكان العقاد يقول دائماً إن العمل الذى يتمنى أن يتمه قبل وفاته هو تأليف كتاب عن الإنسان والكون ليكون متمماً لكتاب (الله) وكتاب (إبليس) .

أما عن العقيدة الإسلامية فقد ألف « العقاد » ثمانية كتب وهى على توالى صدورها (الفلسفة القرآنية) ، (الديمقراطية فى الإسلام) ، (الإسلام فى القرن العشرين) و(مطلع النور) . (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) ، (الإنسان فى

القرآن الكريم) ، (التفكير فريضة إسلامية) ، (ما يقال عن الإسلام) . وكان إيمان « العقاد » بعروبته مستمداً من إيمانه بعقيدته الإسلامية ، وكان يؤمن بأن هذه القومية تستمد طابعها المستقل وإيمانها ، لا من أصحابها الأولين فحسب ، بل أيضًا من أعلام الفكر الإسلامى والعربى ، فمع ما كتب عن النبى الكريم فى (عبقرية محمد) وعن صحابته الأولين فى (عبقرية عمر) ، و(عبقرية خالد) ، و(الصديقة بنت الصديق) ، و(الحسين بن على) ، (بلال بن رباح) كتب عن أعلام العرب الشعراء والمفكرين مثل (ابن الرومى) و(أبى العلاء) و(أبى نُوَاس) كما كتب عن (ابن سينا) و(ابن رشد) و(الشيخ محمد عبده) و(سعد زغلول) .

ولم تكن فكرة التوحيد والإسلام هى القضية الوحيدة التى تبناها « العقاد » ، بل إنه تبنى كذلك فكرة الحرية ، التى كانت أهم فكرة هتف بها العقاد ، فقد ظل لسنوات يكتب عن حرية الفكر والرأى ، وحرية السياسة والديمقراطية ، وحقوق الشعوب . كما كان للعقاد السبق فى الكتابة عن الفكر الاشتراكى . وكان من أوائل الكتاب المصريين الذين كتبوا عن هذا الفكر السياسى الجديد .

العقاد والمرأة :

للعقاد رأى خاص فى المرأة ، وقد تأثر فى هذا بآراء الفيلسوف الألمانى « شوبنهور » ، والشاعر العربى « أبى العلاء » ، وقد شن أول هجوم على المرأة فى عام ١٩١٢ فى كتابه (الإنسان الثانى والمرأة) وكان « العقاد » ينكر دائماً على المرأة صلاحيتها لكل ما يصلح له الرجل من شئون الحياة . ذلك أن لها فى رأيه مجالا غير مجاله .. فمجالها حراسة النسل ، ومجاله عراك الحياة وشئون الحكم ، وينتهى « العقاد » إلى أنه من الخطأ أن يُعْطَى لها حق فى السياسة ، وقيادة الجماعات وسن القوانين والتخصص فى العلوم والفنون أن ذلك كله فى رأيه – يتعارض مع كفاءتها

الأنثوية وقواها الطبيعية .

إلا أن نغمة الهجوم الشديد هذه هدأت بعض الشيء فى كتابه (المرأة فى القرآن الكريم) ، فقد تأثر بالصورة العظيمة التى رسمها القرآن لشخصيتها الإنسانية ونراه فى هذا الكتاب يقرر ضمناً ولأول مرة أن العمل حق للمرأة مثل الرجل ، وأن لها أن تتساوى فى الحقوق والواجبات ، وإن كان من رأيه دائماً أن تأخذ المرأة فرصتها الكريمة لرعاية أسرتها وأولادها بدون عوز مادى يضطرها إلى خوض الحياة العملية على حساب هذه الواجبات الأساسية .

ولا يعنى هذا أن العقاد كان رجعيًّا فى فكره ، بل إن الشواهد كلها تدل على أنه كان مفكرًا تقدميًّا من طراز فريد .

العقاد والشعر :

كان للعقاد آراء خاصة فيما يتعلق بأصول ومقاييس الشعر العربى الحديث ، فقد كان يهاجم وبشدة مدرسة الأحياء والبعث التى كان يتزعمها « البارودى ثم شوقى » . وكان هجومه يتناول مضمون الشعر وشكله . فقد دعا « العقاد » إلى تغيير مضمون الشعر وشكله . أما عن المضمون فقد دعا إلى أن يعبر الشعر عن النفس البشرية فى مواجهتها للحياة والوجود تعبيراً صادقاً يعكس شخصية الشاعر وسماته .

وهو مع دعوته هذه إلى تطوير مضمون القصيدة العربية نادى بتحرير الشعر من القافية ، وإلى إعادة النظر فى الأوزان والقوافى ، بحيث يدخل عليها الشعراء كل ما يريدون من تعديل . ولكن المتتبع لإنتاج العقاد الشعرى يلاحظ أنه لم ينطلق أبدًا خارج إطار الشكل التقليدى للشعر ، فكان كل ما نظم من قصائد يأخذ الصورة القديمة ، وهذا يدل على أنه قد رسخ فى نفسه أن التجديد المنشود للشعر الحديث إنما هو تجديد المضمون لا تجديد الشكل ، وأن الخصائص الشكلية للقصيدة العربية

جوهر قائم فى تناسقها الفنى ، بل إننا نراه مهاجماً عنيفاً للتيار الجديد فى الشعر الذى غمر العالم العربى فيما بعد .. وهو لم يقف هذا الموقف إزاء مضمون الشعر الحديث وإنما وقف أمام هذا التطور الواسع فى شكله واعتماده على التفعيلة دون البيت والقافية ، وكان دفاعه حاراً عن القيم الموسيقية للقصيدة العربية ، وفى هذا الموضوع نشر « العقاد » كتابيه الشهيرين (اللغة الشاعرة) ، و(أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب) .

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى إيمان العقاد بالتجديد حينما نجده يدعو إلى الالتزام بالقواعد الفنية ونبذ كل ما هو قيد يحجر على حرية الشاعر فى إبداعه الفنى .. ومن هنا يفتح المجال – بفكره الثاقب – أمام كل تجديد فنى مادام فى إطار مدروس ..

لقد غادر العقاد حياتنا منذ خمسة عشر عاما ولم يترك وراءه ثروة ولا ورثة .. عاش حياته للفكر والعلم ، وحين سألوه لماذا لم يتزوج . أجاب : إن الحياة الاجتماعية تعطيه الفرصة لكى يتفرغ لحبه لقلمه ، وبدلا من أن تمتلئ أركان بيته بالأثاث الفخم والرياش الثمين . امتلأت بآلاف من الكتب والمراجع والأوراق . وبدلا من أن يترك فى الحياة أبناء يحملون اسمه ترك اسمه على صدر ثمانين كتاباً تعد كلها حججاً فى موضوعاتها .

لقد ترك « العقاد » بصماته على ثقافة كل قراء العربية من الرباط إلى بغداد .. ومازالت مؤلفاته إلى اليوم تحتل مكانها المرموق على أرفف المكتبات العربية تحكى إلى جانب مضمونها العلمى أعظم قصص الصمود والتحدى .

وفى جنوب مصر فى مدينة أسوان أقيم نصب تذكارى من الرخام الأبيض تحيط به حديقة خضراء مساحتها نصف فدان ، تضم نافورة ترمز لتدفق فكر « العقاد » وتجدد ثقافته .

كما أقيم فى عام ١٩٧٣ فى أسوان متحف يضم الممتلكات الشخصية « للعقاد »

وهى تشمل الأوسمة وشهادات التقدير ، ومن أهمها جائزة الدولة التقديرية فى الأدب والتى حصل عليها فى عام ١٩٦٠ .

كما يضم هذا المتحف الهدايا التذكارية التى حصل عليها « العقاد » فى حياته وملابسه الشخصية كالطربوش والعصا والكوفية ، التى كان يرتديها دائماً ويشتهر بها . كما ضم كذلك محتويات (بيت العقاد) فى مصر الجديدة والتى تحدث عنها فى كتابه (فى بيتى) .

وفى قصر ثقافة أسوان على شاطئ النيل العظيم ارتفعت منذ خمس سنوات لافتة تحمل اسم (مكتبة العقاد) .

فقد أهدت أسرة المفكر العظيم محتويات مكتبته فى منزله بأسوان (وهى حوالى أربعة آلاف كتاب) إلى قصر الثقافة لتكون فى متناول يد رواد القصر من الشباب ومحبى الثقافة .

وفى وسط المكتبة تقرأ كلمة من آخر كلمات العقاد ..

(التجارب لا تقرأ فى الكتب .. ولكن الكتب تساعد على الانتفاع بالتجارب) .

ثلاثون عاما على وفاة الملاح التائه*

ولد ملاحا .. لكنه مات قبل أن يصل إلى المرفأ .. !

يا ليت لى كالفراش أجنحة   أهفو بها فى الفضاء هيمانا
أدف للنور فى مشارقه   وأغتدى من سناه نشوانا
وأرشف القطر من بواكره   فلا أرود الضفاف ظمآنا

لم يعرف الشعر العربى شاعراً قدّم اعترافاته لقرائه وسامعيه مثل على محمود طه .. هذا الشاعر الذى عرفته الأوساط الفنية فى مصر من منتصف الثلاثينات وحتى نهاية الأربعينات والذى خلّد اسمه فى تاريخ الأدب ثمانية دواوين ، أولها الملاح التائه ١٩٣٤ ، وآخرها شرق وغرب ١٩٤٧ ، كما لم تعرف الحياة الأدبية فى مصر شاعراً اختلفت الآراء حوله وحول إنتاجه مثل هذا الشاعر الذى تغنى بالليالى الحمراء والخمر بنفس العذوبة التى تغنى بها للحرية والنضال .

ولد على محمود طه فى عام ١٩٠٢ فى ريف قريب من مدينة المنصورة وفتح عينيه على غناء الطبيعة وتراتيلها ، وأكاد أتخيله صبياً يداعب ماء الجدول ويبتسم للزهرة التى توشك أن تتفتح ، ويتعلق نظره بأغصان الأشجار وهى تتعانق وتتباعد .. أكاد أتخيله عابداً صغيراً فى محراب الكون الكبير ..

---

* نوفمبر ١٩٧٩

ثم درس على محمود طه العمارة فى مدرسة الفنون التطبيقية فأضافت هذه الدراسة إلى نفسه الشاعرة الهائمة لمسة منظمة متأنقة .

عاش على محمود طه الشطر الأول من حياته منطوياً منعزلاً عزوفاً عن حياة الهرج والمرج ، فكان شعره فى هذه الفترة حزيناً دائماً ، يردد أنغام الألم والعذاب ربما كان هذا لطبيعة الحياة الاجتماعية المنغلقة فى هذه الفترة ، وربما لأنه صدم فى حبه الأول صدمة هزّته ، فأدمعت قوافيه فجاءت أبياته شاكية متأوهة ؟؟ ..

وربما لأن السمة العامة للأدب المقروء فى هذا الوقت كانت تميل إلى ما يسمى بالرومانسية الوجودية التى تتميز بالمزاج المنقبض والتشاؤم – ربما .

المهم هنا أن على محمود طه كان فى الفترة الأولى من حياته وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره شاعرًا حزينًا حمل بين أصابعه نايه الصغير وجلس تحت شجرة عجوز وراح يحكى ، وأظنه فطن فى هذا السن الناضج إلى أن الأيام تجرى به ومعه وأنه يخسر بهذا شبابه ، فرمى الناى فى النهر ، وحطم شجرته العجوز وصنع من خشبها زورقاً جديداً جميلاً ركبه وراح يجول أنحاء العالم سائحاً وقارئا يفتش عن الجمال ويبحث عن اللذة ....

ودع على محمود طه الدموع أو قل إنه سكبها فى كأسه وراح يسكر بخمر الدن ويفيق على ضحكة امرأة لعوب ، ويغنى فتهتز لألحانه قلوب قارئيه .

ولكى ندرك أعماق التغير الذى طرأ على شخصية شاعرنا نقرأ بيتين من كل مرحلة من هاتين المرحلتين .

فى المرحلة الأولى يقول فى قصيدته (غرفة الشاعر)

أيها الشاعر الكئيب مضى الليل ومازلت غارقاً فى شجونك
مُسلما رأسكَ الحزين إلى الفكر وللسهد ذابلات جفونك

ومن أشعاره فى الفترة الثانية هذه الأبيات التى يرد فيها على سؤال صاحبته (من أنت ؟؟) .

فقالت ما حياتك ؟ قلت حلم ... من الأشواق أوثر أن أطيله
حياتى قصة بدأت بكأس ... لها غنيتُ وامرأة جميله

وهكذا مضى شاعرنا فى رحلته مع الحياة اللاهية وإن كانت الأيام لم تتركه ينعم بهذه اللذة العابرة ، فأرسلت يداً قاسية تعهدت بأن تزرع فى قلبه شوكة تتحرك فى داخله وتسرع بالنهاية ، فودع على محمود طه عالمنا فى ١٧ نوفمبر من عام ١٩٤٩ وهو مازال يحلم بعناق أطول وأجمل مع الحياة .

* * *

كان على محمود طه واحداً من رواد المدرسة الرومانسية الغنائية العاطفية فى مصر.. وينتمى إلى هذه المدرسة أحمد زكى أبو شادى وإبراهيم ناجى وصالح جودت وأحمد رامى .

ومن الخصائص العامة للشعر الرومانسى الميل إلى التحدث عن الطبيعة واعتبارها الأم الحانية والمهرب من واقع الحياة المؤلمة ، كما تكثر فى شعر الرومانسيين الموضوعات النسائية ، وهم ينظرون إلى المرأة على أنها إنسان له خصائصه وحقه فى الحياة واللذة ، وهم قلما يناقشون العلاقة بين الرجل والمرأة من زاوية التحريم أو التجريم ، بل هم يحملون المجتمع دائما مسئولية أى إثم أو أية خطيئة .

ومن خصائص الرومانسيين كذلك الميل إلى الحزن والشكوى من العذاب ، فأشعارهم دائما مبللة بدموعهم محترقة من نار أنفاسهم .

هذه الخصائص الموضوعية تنقلنا إلى خصائص تعبيرية يتميز بها الأدب الرومانسى : مثل الخيال المجنح والاهتمام بالصور والأخيلة ، والبحث عن الغريب

منها واستخدام الألفاظ الموحية والتراسل بين الحواس .

وكان لعلى محمود طه سماته الخاصة كواحد من الشعراء الرومانسيين ، وعن هذه السمات يقول د . أحمد هيكل عميد دار العلوم :

يأتى على محمود طه فى طليعة شعرائنا الرومانسيين ومن سماته الخاصة التحليق بالشعر والميل إلى خلق جو شعرى ، وإشاعة عطر ونشوة شعرية من خلال قصائده ، وهو فى ذلك يبتعد عن المعانى الفلسفية العميقة وعن المزاج الكلاسيكى ، وهو يصنع بقصائده جوا أثيرياً محلقاً ، ولا نكاد نجد عنده مضموناً عميقاً ، أو معنى فريدا .

ولا يعنى هذا أنه كان شاعراً لفظيا ولكنه كما يقول عنه النقاد (شاعر التحليق الشعرى والجو الصافى) .

ويجرنا حديث د . هيكل إلى قضية هامة تتعلق بتقييم إنتاج على محمود طه ، فقد اتهمه البعض بأنه شاعر لفظى ذلك أنه ابتعد عن المنهج الفكرى والفلسفى ، واقترب من المنهج الوصفى مستعيناً بقاموس لفظى متميز بالموسيقى الداخلية والخارجية ، فقال عنه د . شوقى ضيف فى كتاب الأدب العربى المعاصر فى مصر .

(إن الخصائص الفنية لشعر على محمود طه تعود فى جملتها إلى خصائص لفظية ، فليس على طه صاحب نزعة فلسفية فى شعره ، إنما هو صاحب لغة شعرية تبعث النشوة فى نفس سامعه وقارئه بألفاظها البراقة وما تحمل من رنين يبدع فيه ويفتن ، ولكنك إذا أنعمت النظر فى هذا الرنين لم تجد فيه فكراً بعيدًا ولا معنى عميقاً ، وإنما تجد فيه الألفاظ التى تضغط على الأعصاب بجمال ألحانها وأنغامها ، فأنت عنده قلما تجد شيئاً يمتع عقلك ، وإنما تجد الألفاظ الشعرية المشعَّة والموحية ... وكانت للشاعر ملكة جيدة يعرف بها كيف يجمع هذه الألفاظ

ويرا كمها فى الشعر فتؤثر فى سامعيه ، وكأنها تغلق الأبواب عليهم فإذا هم قد وقعوا فى شباكها) .

ولكننا فى قراءتنا لتراث على محمود طه قد نختلف مع د. شوقى ضيف ، ذلك أن اهتمام شاعرنا بموسيقية اللفظ وأناقته وإيحاءاته العديدة لم يصرفه أبداً عن الأبعاد الإنسانية العميقة التى تحدث عنها ، فهو من الشعراء القلائل الذين استطاعوا أن يخرجوا من قواقعهم الخاصة ، ليناقشوا قضايا الإنسان كإنسان خلق على هذه الأرض ليحيا حياة سعيدة ، لا لكى يعانى الشقاء منذ يوم مولده وحتى يوم وفاته ، لكنه كشاعر رقيق لم يرفع صوته بالخطب الرنانة ، ولم يخاطب الساسة ولا الدول ، وإنما خاطب قلب الإنسان البائس والمعذب ، وكانت دموعه محاولة منه لتكفيف دموع الآخرين .

فكان كما قال عنه صديقه الناقد أنور المعداوى (ليس شاعراً من أولئك الذين يصوغون الحياة أفكاراً منظومة مجردة من أثواب الشعور ، وليس شاعراً من أولئك الذين ينقلون الحياة نقلاً آليا لا روح فيه ، ولكنه من أولئك الذين يتفردون بالذاتية والأصالة عند تصوير الحياة فى لحظات التوهج والتوثب والانطلاق) .

ويعود الناقد أنور المعداوى فينفى صفة الأداء اللفظى عن أشعار على محمود طه ، ويؤكد أنه شاعر الأداء النفسى ويقول : (شاعر الأداء اللفظى هو من يعنى بالموسيقى الخارجية ليجذب سمعك ، وشاعر الأداء النفسى هو من يعنى بالموسيقى الداخلية ليجذب شعورك . وهنا مفرق الطرق بين موسيقى تستمد رنينها من اللفظ وحده لتهز منافذ الأذن ، وبين موسيقى تستمد رنينها من النفس لتهز مسارب العاطفة) .

ورغم هذا الاختلاف فى الآراء حول شعر على محمود طه ، إلا أن الكل قد أجمع على أنه كان الشاعر الأول فى مصر بعد وفاة شوقى أمير الشعراء ، وعلى أن

نزعته الإنسانية الطاغية جعلت أشعاره تقترب من العالمية بثبات يؤيدها فيه إنسانية قضاياها ، ورقة تناولها .

لقد كان على محمود طه فناناً ملتزما بقضايا عصره ، فى نفس الوقت الذى عاش فيه أعماق نفسه يصورها ويحللها ، وكما شغل بقضية حريته وانطلاقه من قيود الوحدة والملل ، شغل بقضية التحرير الكبرى التى عاشتها الشعوب العربية كلها فى النصف الأول من هذا القرن ، وكما عاش تجربة الاختيار على المستوى الشخصى ، عاش تجربة الاختيار على المستوى القومى ، وكانت فلسطين بتجربتها المريرة هى أكثر القضايا القومية التى تحدث عنها على طه فى أشعاره ، وخاصة فى ديونيه (شرق وغرب) و(الشوق العائد) .

لم يكن على محمود طه إذن شاعر وادى النيل فقط وإنما كان شاعر عروبته بل وإنسانيته ...

لقد أبدع لوطنه الصغير مصر أبياتا بعد أبيات تفيض كلها حبا ودعوة للحرية :

يا بحر ما بك ما بى ! مصر ما بعدت
ولى إليها بهذا الشعر إسراءُ
عجبت والعصر حر كيف فى يدها
هذا الحديد له حز وإدماء
أقسمت لا رجعت بى فيك جارية
إن لم تجئْ عن جلاء القوم أنباء

– ثم هو عربى مؤمن بعروبته وتاريخها ومستقبلها :

أى التخوم تناءت بين أربعها
لها من الروح تقريب وإدناء

أرض عليها جرى تاريخنا وجرى
دم به كتب التاريخ أبناء
مبارك غرسه منه بأندلس
والقادسية واليرموك أجناء

وهو إنسان تهزه البطولة الإنسانية حيثما كانت وتشغله قضية الحرية مهما كان وطنها وعن (ستالينجراد) يحدثنا على محمود طه بعنوان (المدينة الباسلة).

طلعوا جبابرة عليك وثاروا ووقفت أنت وروحك الجبار
عصفوا ببابك فاستبيح فلم يكن إلا جهنم هاجها الإعصار
حرب إذا ذُكرت وقائعُ يومها شاب الحديد لهولها والنار

ولم يكن إعجاب على محمود طه بالبطولة قاصرا على أحداث زمانه والقضايا التى عاشها.

بل إنه كان يعشق البطولة حيثما وجدت ووقتما كانت، ومن التاريخ استلهم على طه قصيدته: (طارق بن زياد)، كما يظهر من خلال انتاجه مجتمعا، قدر ثقافته التاريخية عربية أو غير عربية، مستلهما من التراث الأسطورى والتاريخى ما يطعّم قصائده من درر هذا الماضى وذاك.

لقد رحل عنا على محمود طه منذ ثلاثين عاماً، حظى خلالها باهتمام النقاد والدارسين وقدّمت لنا المكتبة العربية عشرات الدراسات حول أعماله وحياته.

وعن تأثير الشاعر على محمود طه على أجيال الشعراء من بعده يقول الإذاعى الشاعر فاروق شوشة:

- نقلنا على محمود طه من التجارب التقليدية التى قدمها البارودى وشوقى وحافظ إلى خيال مجنح رحب جديد استمده من اتصاله المباشر وغير المباشر

بالحضارة الغربية ، كما قدم لنا تجارب شعرية جديدة تظهر فيها قمة اليقظة والتأمل والإحساس بالإيقاع ، ثم بهرنا على محمود طه بقدرته على أن يولد من اللحظة السياحية صورة شعرية ، وهو صاحب الفضل فى تعريف القارئ العربى بنماذج من الشعراء الأوربيين أمثال (رامبو) و(لامارتين) و(هوجو) و(زولا) و(بيرون) .

* * *

انتهت أسطورة على محمود طه (الملاح التائه) بعد أن شارك فى أكبر ثورة فى الشعر العربى الحديث .. هذه الثورة التى مهدت الطريق إلى ظهور جيل الواقعية العقلانية الحديثة الذى تزعمه صلاح عبد الصبور وأحمد حجازى ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب وغيرهم .

صورة بالكلمات للفنان « سيف وانلى » *

وانلى : عبقرية مزجت الحضارات فى فرشاته .. بدر الدين أبوغازى

وانلى : فنان شفاف كالبلّور .. حسين بيكار

وانلى : أحب الموسيقى فصور أعلامها مدحت عاصم

انطفأت الشمعة ، ومازال نورها يملأ عيون عشاق الجمال ، وأفل النجم ومازال معلقاً فى سماء الفن رمزًا للحب والخير.

رحل الفنان « سيف وانلى » ابن الثغر العصامى الأصيل ، وترك وراءه تراثاً رائعاً من الأعمال الفنية العظيمة التى تعتز بها مصر وطنه الكبير ، وتعتز بها الإسكندرية وطنه الأثير ، لم يجلس « سيف » أبدًا على مقاعد المدرسة ليتلقى دروساً فى الفن ولكنه ترك أعمالا ستسغرق جهد عشرات الدارسين الذين سيتناولون هذا الفنان وأعماله بالدراسة والبحث .

عشق البحر والشاطئ ، وأحب راقصات الباليه ، وبنات بحرى ، وقضى ساعات طويلة يستمع لأشهر الأعمال الموسيقية العالمية ، ثم صور أصحابها من وحى أعمالهم . أحب الحياة .. فوضعها على طرف فرشاته ، وأحب الجمال فجسده بألوانه .. كان سخيًّا بفنه وقلبه ، فترك عشرات الذكريات الطيبة مع مئات اللوحات التى تحمل توقيعه كأعظم ما يحمل الابن من ميراث أبيه .

* فبراير ١٩٧٩

طالعنى اسمه فى عديد من صالونات أصدقائه ومكاتبهم .. فى بيت ابن الإسكندرية الفنان « حسين بيكار » ، وشيخ الموسيقيين « مدحت عاصم » ، وفنان مصر الأصيل « راغب عياد » ، كما طالعتنى لوحاته فى ردهات مؤسسة الأهرام ، ورأيت ملامح « سيف وانلى » داخل أطر هذه اللوحات وبين ظلال أشكالها .

كلما بدأت الحديث عنه مع أصدقائه ، سبقت تعبيرات الحب على وجوههم كلمات التقدير والعرفان ، وأحسست الأسى فى العيون ، فقد أغلق الموت كتاباً رائعاً ظل مفتوحاً لأكثر من سبعين عاماً حافلة بالعطاء والجمال . مع وزير الثقافة السابق الفنان « بدر الدين أبو غازى » كان لى حديث طويل حول فارس جيل الرواد من التشكيليين « سيف وانلى » . قال لى الوزير « بدر الدين أبوغازى » :

- ويشكل « وانلى » ظاهرة .. فهو متفرد فى العديد من مظاهره الفنية والشخصية .. وهو فنان بارز ضمن جيل الرواد .. هذا الرعيل الذى أرسى دعائم المدرسة المصرية فى الفن منهم (محمود سعيد ، ومختار ، ومحمد ناجى ، ويوسف كامل ، وأحمد صبرى ، وراغب عياد ، ومحمد حسن) .

إلا أن وانلى يختلف فى بدايته عن بدايات الآخرين .. فقد انشغل معظم هؤلاء بقضية اختيار النغمة المصرية الصحيحة ، والبحث عن الشخصية المصرية فى الفن ، فى حين اتجه « وانلى » إلى معالجة موضوعات جديدة كل الجدة عن اهتمامات الرسام أو المصور المصرى . فقد بدأ يصور الأوبرات والباليهات الأجنبية التى ملأت مسارح الإسكندرية .

وبدأ « سيف » يسجل بخطوطه الخاصة الحركة فى سيقان الراقصات وأذرعهن ، وبدأ يعبر باللون والضوء عن روح الموقف ويسجل موسيقاه . وكانت هذه البلاغة فى التعبير ووضوح الخط وقوته بداية تحديد شخصية « وانلى » الفنية .

وأصبح « سيف وانلى » فى هذه الفترة وبحق يقف على نفس المستوى مع الفنان الفرنسى التأثيرى (ديجا) الذى اشتهر بتصوير الباليهات .

ويمضى الوزير الفنان « بدر الدين أبو غازى » فى حديثه عن « سيف وانلى » :

كان « وانلى » ذكياً ، فهو لم يحاول أن يربط نفسه بشعارات ، أو أن يدعى أن له منهجاً خاصا به .. بل انطلق يعبر وبحرية من خلال اللون والخط والموضوع عن نفسه ، وعن بيئته ، عن العالم المشرق حوله .

وتظهر عبقرية « وانلى » عندما كان يستخدم اللون الأزرق ، وهو لونه المفضل فى التعبير عن مختلف الأحاسيس والمعانى . فقد عبر به عن الشروق والغروب ، والحزن والسعادة والأمل ، واستطاع « وانلى » أن ينفذ إلى لغة اللون . وكان مبدعاً فى تنويعاته المختلفة للون الواحد . فقد كان اللون هو محور لغته التشكيلية وأداته لتوصيل نفسه إلى المُشاهد .

وكان « وانلى » دقيقاً كذلك فى رسمه للشخصيات ، وتخطى مرحلة التصوير الفوتوغرافى والنفسى ، واستطاع أن ينفذ إلى أعماق الشخصية من خلال اللون والخط .

ويرى الأستاذ « بدر الدين أبو غازى » أن مجموعة صور الموسيقى التى رسمها « وانلى » تعتبر إعجازاً خاصًا بهذا الفنان الذى أحب هؤلاء الموسيقيين وعشق موسيقاهم .

وتعد هذه المجموعة (المينياتور) من أندر المجموعات فى العالم كله . كما تفرد « وانلى » بين فنانى مصر بتصوير القطع الموسيقية وتحويلها إلى لوحات نابضة بالإيقاع حافلة بالنغم .

ووانلى فى رأى الأستاذ « بدر الدين أبو غازى » ، يعبر بصدق عن عبقرية مصر فى القدرة على صهر الجنسيات والحضارات المختلفة ومزجها فى بوتقة واحدة تصبح

بعدها هذه الألوان من الثقافة لوناً فريدًا مميزًا واضح الملامح . ففى شخصية « وانلى » الفنية تمتزج ، رواسب الحضارات المختلفة الأجناس والتيارات والمدارس المتعددة ، وفى نفس الوقت يبقى « وانلى » بطابعه المميز علماً على الأصالة والمثابرة .

ولكن كيف تخلد مصر ذكرى فنانها العظيم ؟

يجيب وزير الثقافة السابق « بدر الدين أبوغازى » :

يُعد « سيف وانلى » من أكثر فنانى عصره فى الإنتاج ، ومن حسن حظه كفنان أن فنانة مخلصة « كإحسان مختار » عاشت فى مرسمه ومرسم أخيه سنوات وسنوات واستطاعت بحكم هذه الصلة أن تساهم بدور إيجابى فى جمع إنتاج هذا الفنان الكبير ليضمه متحف يقام فى مدينة الإسكندرية .

إن (ركن وانلى) – إذا قدر الاهتمام به – يحتل مكانه فى المعارض العامة التى تهتم بفنانى عصره كما أن منزله ومرسمه ينبغى أن يكونا مزارًا ومتحفاً يحمل اسمه كما هى الحال مع الفنانين الكبار فى أى وطن ..

وهناك ظاهرة خاصة بالفنان « سيف وانلى » ، هى أن إنتاجه كل منتشرًا وموزعاً فى أكثر من مكان ، فكم من لوحات له عند أصدقائه وأحبائه وفى المؤسسات والهيئات المختلفة . إن جمع هذه الأعمال وتوثيقها فى كتاب خاص أو(كتالوج) ، هو رسالة كبرى يجب أن تضطلع بها الهيئات المعنية فى مصر ، حفاظاً على تراث هذا الفنان العظيم .

ويضيف الأستاذ « بدرالدين أبوغازى » : لن ينسى أصدقاء « وانلى » ومعارفه تقليده الجميل الذى كان يحرص عليه منذ أكثر من نصف قرن وهو إرساله بطاقات تهنئة بالعيد مرسومة بريشته إلى كل أصدقائه ، وكانت كل بطاقة تحمل رسماً خاصا بها .. إن جمع هذه البطاقات لعرضها فى كتاب واحد سيكون شيئًا رائعًا فى حد ذاته .

ومع الفنان « حسين بيكار » جاء الحديث مسهباً عن « سيف وانلى » .. وعندما تحدث « بيكار عن وانلى » أحسست بندى الحب يبلل كلماته ، والإخلاص يعطر عباراته ، فالصلة وطيدة .. فهما من مواليد الإسكندرية ، وتربطهما صلات أخوة وصداقة وزمالة فن وفهم عميق متبادل .. قال لى « حسين بيكار » :

بدأ « وانلى » رحلته من المرحلة التقليدية ، وهى المرحلة التى يبدأ بها كل فنان حياته . وإن كان « وانلى » قد بدأ بعيداً عن المدارس والمعاهد فالإسكندرية كانت تخلو من المعاهد الفنية النظامية وقت أن بدأ « سيف » حياته الفنية ، لكنه كان دائم التردد على مراسم الأجانب التى كانت تزخر بها الإسكندرية فى هذه الآونة . وهناك درس إخوان « وانلى » (سيف وأدهم) أبجديات الفن ، وبرغم بعد « وانلى » عن الدراسة النظامية فإن نزعته التقدمية وحبه للتطور جعلته فى هذه المرحلة المبكرة يتأثر بالمنهج التكعيبى فى الرسم ، وكان منهجاً سائداً وقتها . لكن « وانلى » لم يقلد غيره ولم يتأثر بعشوائية ، بل إن تأثره كان تأثراً مدروساً ومتفهما لإمكانياته وطبيعته ، فكانت عين الفنان عند (سيف) تلخص الرؤى والمناظر حوله ، وتبسط الخطوط تبسيطاً جمالياً . فتصبح لوحاته كقطع الموسيقى الهادئة ، تعطى مضمونها فى إيقاع رقيق هادئ .

وبدأ وانلى بعد هذه المرحلة فى مرحلة جديدة كل الجدة على الفن فى مصر ، فقد لفت نظره الفرق الأجنبية التى تزور الإسكندرية لتقدم عروض الباليه والأوبرا على مسارحها ، ولفتت نظره الأضواء والألوان والحركة ، وجذبته بما فيها من جديد ، ونقلت ريشته الحساسة حركة المجاميع ، وتأثير الإضاءة بمهارة لفتت إليه الأنظار وقتها ، وكان أول معرض لإخوان « وانلى » فى الخمسينيات ظاهرة فنية جديدة حتى أطلق عليه البعض اسم (ديجا الشرق) .

ويقول الفنان حسين بيكار عن لوحات هذه الفترة :

(هذه اللوحات تعطينى إحساسًا بعذرية الريشة التى ترقص على اللوحة البيضاء فقد كانت راقصات وانلى مثل الفراشات الحالمات ، وكان اللون المصفى الذى يستعمله وانلى فى هذه اللوحات يعطى دائماً إحساسًا بالراحة والاسترخاء النفسى والسعادة والإشراق .. »

« فوانلى » فى رأى (بيكار) فنان صادق ، شفاف مثل البلور .. ليس به ازدواجية ولا تعقيد وهو يقول عنه .. لقد مضى « وانلى » يعزف بفرشاته الناعمة أحلى نغمات الأوبرا والباليه . ولكنه لم يقف عندها متجمدًا ، بل بدأ يتأثر بالمدارس العالمية ويؤثر فيها .

فجرد « وانلى » رسوماته ، وعبر عن مضامين لوحاته بخطوط قليلة ، ثم حور هذه الخطوط لخدمة التكوين الجمالى فى اللوحة ، وقطع وانلى فى هذا الاتجاه شوطاً كبيراً .. ومن أعظم أعماله فى هذه الفترة (مرثية أدهم وانلى) إلى جانب عدد من أعماله للطبيعة الصامتة .. وفى هذه المرحلة التجريدية بدأ « وانلى » تجربة جديدة كل الجدة على الفن فى مصر ، وهى رسم القطع الموسيقية فى أشكال وألوان إيقاعية ، وبرع « وانلى » فى هذا حتى أن لوحاته تكاد تنطق بألوانها ومساحاتها بإيقاع القطع الموسيقية التى أراد أن يعبر عنها .

كما يعترف تاريخ الفن عامة « لوانلى » بفضل رسم أشهر مجموعة من (المنمنمات) ، أو الصور (المينياتور) لأعلام الموسيقى فى العالم ، متأثراً بصورهم وأعمالهم ، وكان يقول إن الصور أعطته ملامح هؤلاء ، لكن موسيقاهم أعطته أعماقهم ، فأصبحت مجموعة صورهم قمة الإبداع فى أعمال « وانلى » ، خاصة وأعمال فنانى عصره عامة .

وفى سنوات « وانلى » الأخيرة . بدأت رسوماته تأخذ طابع التصوف والذوبان

والصفاء ، فتحولت الطبيعة إلى أطياف والشخوص إلى أشباح ، وأصبحت لوحاته إحساسًا باللاتناهى المطلق ، لقد بدأت روح « سيف » فى هذه الفترة تنصهر داخل بوتقة فنه ، وتذوب فيها الخطوط والملامح وتختفى ، إلاَّ من آثارها الهائمة فى اللا وجود ، ويرى الفنان « بيكار » أن هذا الإحساس ربما كان تنبؤاً من « وانلى » بقرب نهايته) .

وبعد رحلة طويلة مع ريشة « سيف وانلى » أسأل الفنان « حسين بيكار » كيف ترسم لنا صورة « وانلى » بالكلمات .

– كان « وانلى » مثالا للعصامية ، فهو لم يتلق تعليماً نظاميًا فى أى فرع من الدراسة ، فنى أو غير فنى . ولكنه استطاع أن يثقف نفسه ثقافة شاملة خلقت منه فناناً متفتحاً متطورًا ناضج التكوين ، وأضحى بحق أستاذًا فى الفن « السهل الممتنع » فإعجاز « وانلى » كان يكمن فى بساطته المتناهية ورقته وشفافية تعبيره .

وكان « وانلى » يجيد التعبير عما فى نفسه من خلال الفرشاة والألوان فحسب ، فقد كان قليل الكلام مقتضب الحديث وإن كان عذباً فى تعبيراته ، وكما كان « وانلى » سخيًّا بخبرته لا يبخل بها على أحد ، كان كذلك معطاءً بفنه ، فكم من أعمال له عند أصدقائه وزملائه ، لقد انتشر « وانلى » فى كل ركن من مصر من خلال أعماله الموجودة فى كل مكان .

ويختتم الفنان « حسين بيكار » حديثه عن « سيف وانلى » قائلا :

لقد ذهب « وانلى » بجسده ، ولكن فنه لن يذهب أبدًا ، فهو خالد خلود القيم العليا فى الحياة .. خلود الحق والخير ، والجمال ، والحب .

* * *

وفى ركن جذاب من صالون شيخ الموسيقيين الفنان « مدحت عاصم » رأيت لوحة صغيرة تمثل بيانو أسود ضخماً على مساحة رمادية اللون .. وفى أعلى اللوحة توقيع الفنان « سيف وانلى » بالحروف اللاتينية (سيف) وفى الركن الأيسر إهداء بالقلم الرصاص من « سيف وانلى » إلى الموسيقار « مدحت عاصم » .

ويقترب « مدحت عاصم » من اللوحة التى تحيطها الغصون الخضراء ويحكى قصتها .

أهدانى « سيف » هذه اللوحة فى عام ١٩٧٣ .. وكنت قد أقمت له حفل تكريم بمناسبة حصوله على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون ، وطلب منى ليلتها أن أعزف له على البيانو ، وأن أقرأ له شعرًا .

وكان طوال السهرة يجلس فى صمت ويتأمل :

وبعدها بأسابيع كنت فى زيارته فى الإسكندرية ، ولما دخلت مرسمه لفت نظرى لوحة مغطاة ، وسألته عنها فقال .

– إنها أنت !

– أنا تحت الغطاء ؟ !

– نعم ..

ورفع « سيف » الغطاء عن هذه اللوحة وقال لى .. أهديك إليك يا « مدحت » .

ويصمت الموسيقار « مدحت عاصم » ثم يستعيد ذكرياته مع صديق حياته « سيف وانلى » .

– كان « سيف » مثالا رائعًا للفنان الحقيق ، كان هادئاً .. رقيقاً .. بشوشاً .. ليست له هواية بعد الرسم إلا سماع الموسيقى .. وكان شديد الارتباط بوطنه الإسكندرية ، فكان يعشقها بكل ما فيها . وكانت أسعد أوقاته هى التى يقضيها

أمام البحر يسمع منه أنغاماً لم يكن يسمعها سواه . وبعد تأمل طويل كان « وانلى » يعتكف فى مرسمه ، وكان دائماً يقول لى :

أنا موسيقى ، وريشتى هى القيثارة التى أعزف عليها أنغامى على لوحاتى البيضاء .

ويمضى الموسيقار « مدحت عاصم » فى حديث عن الرسام « سيف وانلى » .

-كان عند « سيف وانلى » أكبر موسوعة لتاريخ الموسيقى فى العالم ، وهى للعالم الإيطالى (ريكوردى) وبلغ به العشق للموسيقى أنه صور جميع الموسيقيين العالميين ، وكانت صورته (لبتهوفن) هى أحب لوحاته إلى نفسه .

وكان « وانلى » يقتنى عدداً من القطع الموسيقية العالمية ، وبلغ من حب « سيف » للفن أن جعله كل حياته . ولم يكن له من حديث إلا عن الفن ، وإذا دار الحديث عن أى شىء آخر فإنه يصمت تماماً ويذهب فى تأمل بعيد .. وكان يقول دائمًا إن الخير هو الجمال .. والجمال هو الخير.. فكل عمل فنى جميل يحمل بالضرورة دعوة للخير.

ويصمت الفنان « مدحت عاصم » قليلا ثم يقول وكأنه يحدث نفسه :

كانت برقية « سيف » هى أول ما وصلنى من تهنئة بعد حصولى على جائزة الدولة التقديرية هذا العام (١٩٧٩) ، واتصل بى بعدها تليفونيًا وقال : سأحتفل بك بعد عودتى من جولة شمال أوربا . . وسيكون حفلاً رائعاً . . وسافر « وانلى » إلى السويد . . وقرأت فى الصحف نبأ وفاته هناك .

الحب وماديات العصر*

هل هناك وقت للحديث عن الحب فى مجتمع آلى يرى الأشخاص مجرد تروس فى عجلة الحياة الحديثة ؟.

هذا سؤال نطرحه على أنفسنا كل يوم وفى كل وقت .. حتى أن الحب أصبح فى حياتنا مشكلة ... وبرغم هذه الحقيقة التى نرددها فى أحاديثنا كل يوم فإن عددًا من المفكرين يرى الحب حلا لكل مشاكل الحياة وعلى رأسهم المفكر العربى « جلال الدين الرومى » الذى يقول (إننى أستطيع أن أفسر لك كل ألغاز الخليقة وليس الحل الأوحد لكل الألغاز سوى الحب) ثم يأتى « د . زكريا إبراهيم » فيقول (إذا كان الفلاسفة التقليديون قد درجوا على اعتبار القيم ثلاثا ، وهى الحق والخير والجمال .. فإن الفيلسوف المعاصر لم يعد يجد حرجاً فى أن يضيف إلى هذه القيم الثلاث قيمة رابعة ألا وهى (الحب) ، فالحب هو الذى يخلع على تلك القيم الثلاث كل مالها من قيمة .

ومع كل المتغيرات التى يعيشها عصرنا ومع كل المشاكل وحلول المشاكل ، فإن (الحب) يبقى قيمة تمثل الحلم والأمل فى خلاص إنسان العصر الشقى والمطحون بين تروس الواقع الاقتصادى والاجتماعى والحضارى الجديد .

---

* صفحة الفكر ملحق الأهرام مايو ١٩٨٠ .

فهل غيرت هذه الحضارة الجديدة فى (موضوع الحب) أو بمعنى آخر. هل الحب كما تقرؤه فى كتب الأدب والفن القديم.. مازال هو الحب الذى نحياه مع أيامنا هذه ؟.. وهل أيامنا مازالت أيام حب ؟

سؤال طرحته صفحة الفكر على عدد من المتخصصين فى أكثر من فرع من فروع الدراسات الإنسانية. وبدأنا مع د. أحمد هيكل » أستاذ الأدب الحديث بكلية دار العلوم.

– هل قتلت الحضارة الحديثة (الحب). قال

– الحقيقة إن موضوع الحب باق ما بقى الإنسان مهما تغيرت الظروف المحيطة به وكلما قَسَت الحياة فى تطورها على هذا الإنسان وحاولت أن تقهره لكى يكون ترساً فى آلة. فإنه بالضرورة يحتاج إلى مهرب بحكم طبيعته وفطرته، وبحكم نبض قلبه ويحتاج إلى متنفس ونسيم نقى يطهر رئتيه من فساد الأجواء.

والحب فى رأى «د. أحمد هيكل» قيمة متطورة فلا ملاذ للإنسان إلا من خلال هذه القيمة النبيلة مهما تغيرت مفاهيم عصره المادية.

– هل يدخل التوافق الفكرى فى علاقات (الحب) ؟

– يقول «د. أحمد هيكل».

– ليس من السهل أن يلتقى محبان وأن يستمرا إذا اختلفت نزعتهما الفكرية بشكل صارخ فالحب فى مفهومه هو الانجذاب التلقائى المسعد من شخص تجاه شخص آخر نتيجة لارتباطات وذكريات وتجارب سارة يتوجها التقاء المشارب.

– هل هذا يعنى أن مفهوم الحب هو الحب بين (الرجل والمرأة) ؟.

– لفظ الحب حينما يُطلق دون تقييد، فإنه دائماً يعنى الحب بين (رجل وامرأة) أما إذا تحدثنا عن علاقة أخرى فيجب أن نوضحها فنقول حب الوطن وحب الوالدين وحب الأسرة وهذا التحديد فى التعريف يدخل عنصر التوافق

الاقتصادى فى إطار مقومات هذه العاطفة (الحب) ، وهذه العلاقة (الزواج) ، فقد أرهقت الظروف المادية الحب وهى شرط لكى يسعد المحبون بمستوى أدنى من الإنسانية .

– هل حدث تغيير فى لغة الأدب بتغيير العصور والبيئات وهل مازال الحب والشعر مرتبطين ؟

– طبعاً .. تتغير لغة الفن الأدبى من عصر لآخر خاصة عندما تعبر عن عاطفة الحب ، فمثلاً لغة الشعر العربى القديم كانت تميل إلى وصف جمال المرأة وصفاً يغلب عليه الجانب الحسى . وعندما تحضر العرب بدأت لغة الحب تتطور وأصبحت أقرب إلى الدعابة والتظرف ، بل وأحياناً تصل إلى حد (التبذّل) كما حدث فى شعر « عمر بن أبى ربيعة » ووصل الأمر به وبآخرين إلى الزهو بجماله وجاذبيته هو بدلاً من الحديث عن المحبوبة . وتطور الأمر حتى أصبح الحب الخاضع الذليل سِمَة من سِمَات المحب الفارس ولم يعد يشين الفارس الشديد على أعدائه أن يكون ذليلاً ضعيفًا أمام محبوبته .

ولهذا الحب الخاضع الذليل بقايا عند بعض شعرائنا الغنائيين فى العصر الحديث وإن كان هذا التيار آخذاً فى الاختفاء بعد أن أصبحت كرامة الإنسان وحريته سِمة من سِمَات عصرنا وأصبح الاحترام والمشاركة هما مظهر الحب الحقيقى .

– وماذا عن لغة الرواية والقصة والمسرح .

– كان تناول الحب فى أول عهدنا بالأعمال القصصية والروائية تناولاً رومانسيًّا حيث يتم التعلق العاطفى بين بطل وبطلة ويعبر الروائى عن هذه التجربة فى أجمل صورها التى تمتلئ بالدفء والوجد والهيام وكثيرًا ماكانت هذه الأعمال تنتهى بنهاية مفجعة تثير الشجن والحزن كما فى أعمال « محمد حسين هيكل ، ومحمود تيمور وغيرهما » .

بعد هذه المدرسة ظهرت المدرسة الواقعية التى تعالج القضايا الاجتماعية فى إطار من الحب كعنصر جذب للقارئ وتأتى (دعاء الكروان) «لطه حسين» شاهداً على هذا الاتجاه حيث جعل الحب والثقافة يقربان بين الطبقات ويقضيان على الصراع الطبقى ثم يأتى «نجيب محفوظ» فيعرض لنا الحب من واقع الحياة، أو يعرض لنا قطاعات الحياة الواقعية من خلال قضية الحب.

أما المسرح فقد سار فى منهج قريب من منهج الرواية ونرى فى مسرحنا الحديث دليلاً على ذلك فى مسرحية (ليلى والمجنون)، فقد جعل مؤلفها «صلاح عبد الصبور» من قضية الحب بين البطلين فرصة لكى يعرض لقضايا العصر ويقدم رؤياه المستقبلية.

ومع «د. سامية الخشاب» أستاذ مساعد علم الاجتماع بكلية الآداب كان حوارنا..

هل قتلت الحضارة الحديثة الحب؟؟

قالت «د. سامية»، لو نظرنا إلى الحب من المنظور الاجتماعى فسنراه متمثلاً فى مشاعر الود والتعاطف التى تربط بين الأفراد فى أى من التجمعات البشرية (أسرة – مجتمع – أو غيره..) ومهما اختلف المستوى الحضارى لهذه الجماعة فلا يمكن أن يختفى الحب من قلوب الأفراد.. إنما الذى تغير هو طريقة تحقيق الحب. فقد اختلفت الوسيلة وإن لم يتغير الهدف، وهو تحقيق السعادة للإنسان.

ونضرب مثالاً على ذلك من عاطفة الأمومة فالأم العصرية عندما تودع مولودها بعد أيام من ولادته فى دار للحضانة ثم تذهب لعملها، ليست أقل حبا لوليدها من الأم التى كانت تتفرغ لتربيته وتحتفظ به فى أحضانها ليل نهار، لتكفل له الحب والحنان والرعاية لأن كلا منهما تهدف إلى سعادة الصغير، الأولى تعمل لتضمن له مستوى ماديًا مناسبًا يكفل له السعادة، والأخرى تغمره بحبها وعطفها

لتمنحه كذلك السعادة ، فاختلاف الظروف البيئية هنا يملى صورة الحب ، يغير الوسيلة ولكنه لا يغير الهدف من العاطفة .

– هل يغير المستوى الحضارى للمجتمع شكل الحب ودرجته ؟ .

هذه الملحوظة فيها كثير من الصحة . فنى المجتمع البدائى تزداد الروابط العاطفية بين الأفراد وتتأكد فى عديد من أشكال التكافل والتعاون ، أما المجتمع المدنى الحديث حيث تعقدت العلاقات بين الأفراد فقد انخفضت حرارة العلاقات العاطفية .

وكلما زاد التقدم الحضارى للمجتمع ، اقتربت العاطفة من العملية والمادية وابتعدت عن المثاليات والخيال .

هل هذا يؤكد القول بأننا ابتعدنا فى العصر الحديث عن العواطف المجردة واقتربنا من الأحكام العقلية ؟

وترد « د . سامية الخشاب » : إن انتشار العلم والثقافة فى حياتنا المعاصرة جعلا الإنسان يدخل الاعتبارات المادية والفكرية فى اختيارات الحب ، فلم تعد لحظة الانبهار التى تهز الفتى أو الفتاة هى التى تحدد هل تربط بينهما عاطفة حب أم لا ؟ بل يتدخل العقل ويضع الاعتبارات الاقتصادية والفكرية والشخصية معياراً إلى جانب الإعجاب أو الانبهار .

– للحب إذن وظيفة اجتماعية أو اقتصادية !

– الحب هو الحل الأكيد لعديد من مشاكلنا . فحرمان الحدث أو الشاب من الحب والحنان الطبيعى غالبًا ما يدفعه إلى الجريمة ..

ثم تأتى فلسفة السلام الاجتماعى التى ينادى بها المصلحون الاجتماعيون والسياسيون ، والتى هى فى حقيقتها فلسفة قائمة على نبذ الحقد وسيادة الحب .

هذه بعض الآراء ... وليست كل الآراء حول قيمة من أعظم وأرق القيم

الإنسانية (الحب) ، ولكن مازال هناك رأى الفنان التشكيلى ، ثم أستاذ فلسفة الأخلاق .. فكيف ينظر كل منهما إلى الحب ؟

* * *

من منا يستطيع أن يقول إنه غير مستعد لأن يدفع حياته فى سبيل الفوز بلحظة من تلك اللحظات الهاربة من أسر الزمان (لحظة الحب) . والفن – كل أشكال الفن – هى دائماً وسائلنا للاحتفاظ بهذه اللحظة واستعادتنا لها ، فمع النغم الحلو تصحو عواطفنا ، وأمام لوحة ناعمة الخطوط تستيقظ مشاعرنا . أما قصائد الشعر فهى دائماً رسائل خاصة بين كل محبين وكل صديقيْن ، كما أنها رسائل ود حميم بين كل أب وولده وكل ابن وأمه .

فى حديث لى مع شاعر الشباب « أحمد رامى » سألته رأيه فى الحب العصرى فقال لى :

– إنه حب سهل سريع يخلو دائماً من دماء الرومانسية التى عشناها .. وليس فيه هذا الحرمان العظيم الذى يشعل قلوب المحبين . فكيف يكون الحب والمدنية تقدم للأحباب كل وسائل الاتصال وفرص الالتقاء . أين الشوق وهو الزيت لقنديل الحب .

ثم سألت شاعر الهمسات السفير « أحمد عبد المجيد » عن تعريفه للحب فقال :

– الحب دفعات ربانية .. وهو علاقة قدسية والله هو الذى يدفع الإنسان إلى الحب هذا إذا كان حباً طاهراً .. وهناك قصة من الأدب اليونانى القديم تقول إن (زيوس) رب الأرباب خلق الناس أنصافاً وراح كل نصف يبحث عن نصفه الآخر إلى أن يلتقيا . وقد يكون هذا اللقاء زواجًا أو حبًا أو عِشقًا أو لقاءً فكريًا .

وكان لابد لكى تكتمل الصورة أن نستطلع رأى الفنان التشكيلى لنرى هل يتغير تعبير الفنان عن مشاعره من جيل إلى جيل ومن موقف لآخر.. وهل تتأثر المدارس الفنية والتشكيلية بتغير المناخ الحضارى والفكرى للبيئة التى تنشأ فيه.

سألت صفحة الفكر الفنان «صبرى راغب» رأيه فى هذا الموضوع فقال:

– لا شك أن مشاعر الفنان وأحاسيسه وأفكاره تتغير من جيل إلى جيل، ومن موقف لآخر، ذلك أن الفنان يستجيب بفنه حسب عمره.. شابا أو شيخًا، كما ينفعل بكل موقف جديد، بل أكاد أقول إن الفنان أكثر من أى إنسان آخر يتأثر بهذه التغيرات الداخلية والخارجية كما يتأثر الفنان دائماً بالمدارس الفنية باعتبارها ظاهرة اجتماعية تتأثر بالمناخ الحضارى والفكرى للبيئة التى تنشأ فيها.

فالفنان يتأثر بالعملية الحضارية لعصره الذى يعيش فيه، وكذلك بكل العصور الفنية التى سبقته. لهذا تأتى تجربته الفنية وعمله الفنى فوق المستوى الفردى على الرغم من ذاتيتها.

والمشاهد المتذوق هو دائماً الناقد الحقيقى الذى يشارك فى التجربة الفنية.

والحب فى تصور الفنان صبرى راغب هو هذا الحب الكبير الذى يربط الفنان بكل ما حوله ومن حوله من كائنات مثل الطيور والحيوانات وغيرها من مظاهر الطبيعة.

فالحب عند الفنان.. هو هذا الشعور الكونى الذى يبدأ فى قاعدة هذه الأرض وينتهى فى السماء حيث يقدم الخالق أروع صور هذا الحب.

وهذا الحب لا يتغير. قد يقوى وقد يضعف متأثراً بأسلوب الحياة المعاصرة له، وبالمناخ الحضارى الذى نعيش فيه: فالفنان هو وحده الذى يعيش دائماً فى تجربة حب لا تنتهى.

بعد هذه الجولة مع الشعراء ودارسى الأدب وعلماء الاجتماع والفن التشكيلى

بقى أن نسمع رأى أستاذ فلسفة القيم . يقول « د . توفيق الطويل » :

إن ما يثير الدهشة حقا .. ما نردده دائماً من أننا نحن العرب نعيش فوق أرض كانت مشرق الديانات ومهد الحضارة وننظر إلى الغرب على أنه مجتمع غارق فى مادياته إلى أقصى الحدود ونتناسى ما نحن فيه من أوحال الضغائن والأحقاد التى أصبحت مضرب الأمثال .

ويرى « د . توفيق الطويل » أن مسيرة التاريخ الإنسانى حافلة بنماذج الكفاح البطولى التى ما كان لها من سلاح حقيقى سوى الحب .

ثم يعطينا المثل على ذلك « بالمهاتما غاندى » زعيم الهند الذى كان مبدؤه الأول هو الكف عن الأذى ولم يكن يملك من وسيلة يجمع بها أفراد الشعب الهندى حوله غير أن يملأ شعاب نفوسهم بالحب ولا يحارب فيهم إلا الحقد والظلم والكراهية .

وعلينا أن نتصور عالمنا العربى إذا تعاونت دوله على البر والتقوى .

فحسْب الحب قيمة عليا تضاف إلى قيم الحق والخير والجمال وتؤكد إنسانية الإنسان وترفعه فوق مستوى البهائم والوحوش الضارية .

ويضيف « د . توفيق الطويل » : إن اندفاع الحياة الحديثة فى اتجاه الإسراف فى الماديات ، خلق العديد من المشاكل الصعبة . منها هذه الأزمات الدولية التى تقوم نتيجة لتزايد الطلب على الموارد المحدودة » بهدف سد حاجات الاستهلاك المتزايد .

لكن الأشكال المختلفة من التعاون الدولى والعلاقات القائمة على الود ، تخفف من هذه الأزمات ، وتمنع اعتداء القوى المختلفة على بعضها ، مما يدعم حرية الفكر للفرد ويؤكد كرامته واستقلاله الشخصى .

وفى ظل نزعة الحب هذه ، يتجه التشريع الدولى والأممى إلى إشاعة المساواة فى الحقوق والواجبات المتبادلة بين الأفراد من ناحية وبين الأمم من ناحية أخرى ،

لهذا تحرص الأمم على أن تسود النزعة الإنسانية ، كما تتطلع إلى السلام وإلى احترام الحقوق والمواثيق الدولية ، وإلى أن يتحرر الإنسان من طغيان الظلم وشرور الاستعباد .

وهذه هى الوظيفة الاجتماعية للحب التى جاءت فى دعوة الفلاسفة المثاليين ، ورسالة الأديان المختلفة .

وللحب إلى جانب ذلك وظيفة نفسية تبدو فى العلاقات المتبادلة بين الأفراد على المستوى الأسرى .. ففى ظل الحب تذوب الأحقاد والضغائن التى تنتهى دائمًا بالجريمة .

وفى رأى « د . توفيق الطويل » أن الحب يعلو بنا فوق نزعاتنا البهيمية ، ويسمو على صغائر الكراهية والحقد ، ويجعلنا نحاول أن نحاكى الله فى صفاته الحسنى ، على قدر ما تسمح طبيعتنا البشرية .

* * *

مع نفسى قبل لقاء الحكيم *
وحوار قصير معه حول الفن

المقياس فى الفن هو المنطق والأصالة

ربما ينتابك شىء من الرهبة إذا تخيلت نفسك تلقاه .. وربما تلعثمت حتى فى تفكيرك وأنت تفكر فى احتمال هذا اللقاء .. وكيف يكون الحديث مع هذا العملاق ؟ وهل تجرؤ كلماتك أن تتخطى نطاق الشفاه وأنت فى مواجهته ؟ .. هذه الأسئلة وغيرها طرحت نفسها علىّ ، أو طرحتها أنا على نفسى ، وأنا أفكر فى لقاء (توفيق الحكيم) .

كانت الرغبة فى لقائه تملؤنى حماساً كلما زارتنى ، ولكن هذه الحماسة كانت تتحطم دائماً على صخور أن توفيق الحكيم عُرف بقلة لقاءاته للصحفيين ، وأنه يرفض فى السنوات الأخيرة لقاءاتهم كلية ، أضف إلى هذا أن ظروفه النفسية بعد وفاة زوجه وابنه لا تسمح لأى شخص مهما كان جريئاً أن يقترب من أسوار مفكر مصر الأول ، وأن يطرق أبوابه .. واستجمعت شجاعتى وطرقت الباب ، وفى الحقيقة لم يكن الباب موصدًا .. بل كان (مواربا) لا يسمح للمتطفلين بالدخول .. ، ولكنه يسمح للتلاميذ والمحبين والأصدقاء فحسب .

---

* يونية ١٩٧٩

كان لقائى الأول به لقاء استكشاف ، بادرنى هو بالأسئلة عنى وعن أهلى ودراستى وعملى .. ، سألته هل تنوى أن تجرى معى أنت الحديث الصحفى ؟ ! قهقة من أعماقه وهو يقول .. لا .. ولكننى أستكشف جيل الشباب . !

سألته : هل يستحق هذا الجيل أن تعطيه من وقتك ولو ساعة ، ليتعرف هو على جيل العمالقة ؟ .. وابتسم وقال .. لا عمالقة ولا غيره .. إنما هو قدرنا .

الحق .. لقد استطاع بعد دقائق قليلة أن يحطم حاجز الرهبة بينى وبينه .. ولم أتصور يومًا أن طفلاً رقيقاً بريئًا يرقد فى حنايا هذا الشيخ الرائد .. !

كانت تسعده كلماتى إذا تضمنت ثناءً .. وكان يبتسم وهو يطلب منى أن أعيد كلماتى التى ربما منعنى خجلى من أن أنطقها واضحة .

سألته أين (البيريه) فقال .. الدنيا حر ..

.. والعصا ؟

التفت ناحية المكتبة حيث وجدتها معلقة !

كانت عقارب الساعة وقتها تشير إلى قرب الثانية ، ففضلت أن أودعه قبل أن يستأذن هومنى .. ولكنى اتفقت معه على زيارة أخرى .

- من فضلك مش عايز أحاديث ولا تسجيلات .. إذا كانت مجرد زيارة .. أهلا بك .

أمضيت الأيام فى ارتقاب موعد الرجل الذى سحرنى كما سحر كل أبناء جيلى بما كتب لنا .. (عودة الروح) ، (يوميات نائب فى الأرياف) ، (عصفور من الشرق) ، (حمار الحكيم) ، (محمد) ، (زهرة العمر) .. وغيرها وغيرها ..

حاولت أن أكون ذكية ، فأجمع فى ذهنى مجموعة من رءوس الموضوعات لتكون مفاتيح لحديثى مع توفيق الحكيم .. واستجمعت كل ما أملك من شجاعة وسألت الله أن (يحل عقدة لسانى) وأنا فى حضرة حكيم جيلنا (توفيق الحكيم) .

قابلني ببشر وترحاب أزالا كل ما ازدحم فى نفسى من رهبة .. صافحنى فى حرارة ثم قدم لى ضيوفه كل باسمه ..

– د . حسين فوزى .

– د . يوسف عز الدين عيسى .

– د . يوسف إدريس .

وأجلسنى الحكيم فى مقعد قريب منه ، وسعدت لهذه الميزة التى ربما ساعدتنى لأستجمع نفسى وأنا أجلس بين هذه الصفوة من رجال الفكر فى بلادنا .

بدأ الحديث حول جيلنا .. جيل الشباب ، وسألنى توفيق الحكيم . هل يعرف جيلنا أصحاب هذه الأسماء ؟ قلت له : إن جيلنا من الشباب شب مفتوناً بجيلكم من الرواد .. لقد تفتحت عيوننا على ماكتب « العقاد » ، « وطه حسين » ، و« توفيق الحكيم » ، « ونجيب محفوظ » .

لقد بُهرنا بجيلكم من الرواد .. ونتمنى أن يواصل جيلنا المسيرة .

قال لى « توفيق الحكيم » ..

– أتمنى أن يواصل جيلكم المسيرة ، لقد فتحنا لكم آفاقاً جديدة من الفكر والفن والأدب .. بدأ جيلنا المسرح المصرى ، والقصة المصرية ، والشعر المصرى ، فى أثواب متطورة برغم أن مصادر الثقافة عندنا كانت محدودة .. وهذه المصادر بالنسبة لكم أكثر سهولة وتنوعاً .. المهم .. أن تُهضم هذه الثقافات داخلكم وتخرج إنتاجاً مصريًّا خالصاً .. إن الحفاظ على مصريتكم مسئولية كبرى إزاء التيارات التى تحيط بكم .

سألت توفيق الحكيم .. هل تتغير أفكار الإنسان وآراؤه بمرور السنين ، خاصة فيما يتعلق بالاتجاهات الفنية ، فابتسم الحكيم وهو يقول لى ..

– اسألى بصراحة أكثر .. وأعدك بإجابة صريحة .

واجهته بعد أن أمنني :

– قلت فى زهرة العمر منذ أكثر من نصف قرن (إن الفن عندى خلق إنسانى جميل لا أكثر ولا أقل) فهل هذا يعنى أن الفن عندك للفن فقط بدون التزام هدف أو فكرة ؟

قال توفيق الحكيم : كانت هده أمنيتى .. كنت أتمنى أن يكون فنى للفن فقط ، أى يكون فناً مطلقاً ، ولكنى لم أستطع ، فقد غلبنى الواقع وقهرتنى الظروف المحيطة ببيئتى .. مثلا . فى (عودة الروح) رأيتنى أنفعل بأحداث بلد يتحول ، ووجدت أن كل فرد من أبطال قصتى يمثل اتجاهًا أو فكرة فى المجتمع .

– ومن هو « توفيق الحكيم » بين شخصيات (عودة الروح) ؟

–كنت (محسن) . بشبابه ومثاليته وورومانسيته .

– (وسنية) .

–كانت مصر بآمالها وطموحها وأفكارها الجديدة وتطلعها إلى المستقبل .

معقولية اللامعقول :

وتوفيق الحكيم هو رائد فن اللامعقول فى الكتابة العربية ، وقد أثارت (يا طالع الشجرة) عند صدورها فى عام ١٩٦٢ جدلاً طويلاً بين مؤيدى (العبث) ومعارضيه وكان عبث «توفيق الحكيم » نمطاً جديدًا على الإنتاج اللا معقول نفسه ، فقد أطلق عليه النقاد الإنجليز (معقولية اللا معقول) ، ذلك لأن طبيعة « توفيق الحكيم » المنطقية والمعقولة ، أعطت لفنه اللا معقول مسحة منطقية . ويجرنا الحديث عن اللامعقول فى فن « توفيق الحكيم » إلى سؤال .

– هل يتذوق شيخ كتاب مصر الفنون الحديثة (المودرن) وهو الذى عرفها فى كتابه (زهرة العمر) بأنها عدم التقيد بالمنطق العام والنزوع إلى المنطق الخاص .

قال « توفيق الحكيم » ..

– أنا من محبي الفنون التقليدية ، ولكنى لا أرفض الاتجاهات الحديثة مالم تكن نشازًا ، فقد بهرتنى سيمفونيات « بتهوفن » وأنا أسمعها فى باريس ، وأطربتنى « أم كلثوم » وأنا أسمعها فى القاهرة ، أما الموسيقى الحديثة بنغماتها السريعة الرشيقة ، فهى تعجبنى ، لكنها لا تطربنى .

وفى الفن التشكيلى بهرتنى أعمال « رفاييل » ، وأنا أقف أمامها فى اللوفر ، وتعجبنى أعمال صديقى الفنان التجريدى « صلاح طاهر » – والمقياس عندى أن يكون الفن مفهومًا وله موضوع ، وإلا فكيف أعجب بشيء ليس له موضوع ! .

ويضيف « توفيق الحكيم » . إن ما يتعمده المجددون من إبهار فى العلاقات اللونية والضوئية فى اللوحة الواحدة ، أو العلاقات الصوتية فى المقطوعات الموسيقية ، ربما يعطى إحساساً بالراحة والمتعة ، ولكنه لا يستحوذ على إعجاب الملتقى لهذا الفن الجديد ولا يبهره .

ويتطلع « توفيق الحكيم » إلى لوحة تتصدر مكتبه بجريدة الأهرام بريشة الفنان « صلاح طاهر » . فأسأله :

– لماذا اخترت هذه اللوحة بالذات ؟

– لأن الفنان استخدم اللون الأخضر بحيوية تعطينى إحساساً مريحاً ، وأحس أن ريشته تنبض بالحياة .

ويضيف « توفيق الحكيم » : إن العمل الفنى الحقيقى يحمل ولا شك فكراً أو منطقاً ، ومادام يحمل منطقاً فمن السهل أن يقنع الآخرين به .

ويصمت شيخ كتاب مصر ، وبعد لحظات تأمل يقول :

المقياس فى الفن هو المنطق والأصالة .

وحوار متشعب مع الشيخ الباقورى *

أنا أحب .. إذن أنا إنسان .

الملابس العصرية .. مؤامرة ضد أنوثة المرأة .

هدف الدين هو سعادة الإنسان .. فلماذا نشدد القيود ؟

أعترف أنها كانت حيرة شديدة تلك التى سيطرت علىّ وأنا أفكر فى الموضوع الذى أبدأ به الحديث معه ... فالمداخل إلى شخصيته عديدة ، ومجالات اهتماماته كثيرة .

وتتابعت الاقتراحات داخل ذهنى .. هل أبدأ بالفتوى أم بالحب .. وهل أتحدث عن تفسيره الجديد لأحكام القرآن الكريم أم أتحدث عن عالم الحيوان وتجارب الصيد ، وهو آخر ما ألف فيه . وهل نبدأ مع أيام الطفولة فى قرية « الباقور » ، أم نسجل ذكريات الشباب فى أسيوط ثم القاهرة . وهل نتحدث عن عالم السياسة ، أم نطرق عوالم الثقافة والعلم والفكر ..

وجاءتنى الفكرة من خلال عبارته الأولى عندما طلب أن تفتح له النافذة وقال : افتحها يا أخى ليدخل الهوا .. ما أجمل الهوا .

وسارعت بالتقاط الخيط .

---

* يونية ١٩٧٧

- هل تقصد الهوا .. (بالألف) أو الهوى (بالياء) .

وابتسم الشيخ « أحمد حسن الباقورى » وزير الأوقاف المصرى السابق ومدير معهد الدراسات الإسلامية ورئيس جمعية الشبان المسلمين وقال :

- أنا أقصد كليهما معاً . فما أجمل الهوا .. وما أجمل الهوى .

وماذا عن الهوى ؟

- مادام الإنسان يعيش مع الآخرين ، فلابد أن يأخذ ويعطى .. والميل العاطفى شىء طبيعى وغريزى فى الإنسان .. والذى لا يميل كذاب .

وأنا ملت .. لأنى إنسان ..

والله قال فى كتابه(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها) والسكينة تأتى مع الميل ، والذى لم يَمِلْ فى الهوى مع امرأة . وحشٌ مدمر .. ليس إنسانًا .. وأنا إنسان .. وأنا بشر .

- وماذا عن ذكريات الحب فى القرية ؟

طبيعة الحياة فى القرية المصرية تفرض لوناً معيناً من الحب .. نمطاً معيناً من العلاقة ، فهى تعتبر الحب شهوة .. وفاحشة ..

ودخل مع هذه الظروف عاملان :

الضيق الاقتصادى ، والضمير الدينى الذى زرعه أهلى داخلى .. والخوف من الخطيئة الذى جعلنى أعيش بعيدًا عن العواطف وخواطر الحب ، حتى سن العشرين عندما تركت أسيوط إلى القاهرة .

- وماذا صنع مجتمع القاهرة المفتوح مع فتى الصعيد المتدين ؟

- مع الدراسة فى الأزهر ، بدأ اهتمامى بالسياسة ، وانضممت للإخوان المسلمين ، ثم كنت عضوًا فى اللجنة التنفيذية العليا للطلبة ، التى شكلت للمطالبة بعودة دستور ١٩٢٣ .

– تغير خط حديثنا عن الوجدانيات إلى السياسة !

– فلنعد إلى ما تطلبين .. تصورى أن ملكة الشعر عندى بدأت تظهر لأول مرة فيما يتعلق بالوجدانيات . عندما عشت تجربة حب غير متكافئة بين (مجاور الأزهر الفقير . وبنت الباشا ..) وقلت وقتها قصيدة أذكر منها :

وداعـا فـتـاتى لا ملالاً ولا غـدرا
وعدراً وإن لم أدر فى جفوْتى عُذرًا
سقى الله عهدًا لم يكن غيرَ غفوة
غفتها عيونُ الدهر عن حبنا دهرا
ليـالى كـان الحب يجمع بيننا
نسرتسله نثراً ونشدو به شعرًا
تُراقبنا عينُ العفاف فلا ترى
علينا لغير الطهر نهيًا ولا أمرًا
كـأنـا ومـاكـنـا لـنـصغى لـريـبة
نُعلِّم هذا الكون من طهرنا الطهرا

ولكنى لم أستمر فى كتابة الشعر الوجدانى ، وانصرفت إلى الشعر السياسى ، ثم الدينى ، وتركتهما كذلك فيما بعد ، هدا عن الشعر .

– حديثنا عن العواطف .. هل هذه محاولة للتخلص من موضوعنا الأساسى .. الحب :

– لا ... فأنا أرى الحب أسمى العواطف الإنسانية كافة... ولا أجد عليه قيداً مالم يقترن بالمفاحشة .. ، وهذا يتطلب من المحب معاناة .. ، لهذا اقترن الحب دائماً بالشقاء .

وجدن الخلاص فى الحجاب :

هل تلتزم الطالبات الدارسات فى معهد الدراسات الإسلامية بالزى الإسلامى الشرعى ؟

* ويرد الشيخ الباقورى .... لا يوجد ضمن تعليمات المعهد ما يلزم الدارسات بذلك وإن كان بعضهن يرتدينه باختيار شخصى بحت .

وما رأيكم فى انتشار ظاهرة الزى الإسلامى فى شوارع القاهرة ؟

* هذا اتجاه من فتياتنا يستحق كل تقدير وتشجيع .

والحجاب بصفة عامة ظاهرة من مظاهر اللجوء إلى الدين يعبر عن الضيق بالحياة بما فيها من مظاهر غير مسعدة ، فيفر الإنسان من حياته البائسة إلى الحياة الأخرى ، التى يؤمل فيها .

وأيسر هذه الطرق هى الإقبال على شعائر الدين وأحكامه وأنا لا أحبذ المغالاة فى ارتداء هذه الملابس عملاً بدعوة رسول الله إلى الاعتدال وعدم التشدد .

وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام (لا تشددوا فيشدد عليكم ، فإن قوما شدّدُوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ، فهذه بقاياهم فى الأديار .. رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) صدق رسول الله ، وأنا أقصد هنا هؤلا اللواتى يخفين وجوههن وأيديهن تماما .

وجهها .. كالقمر :

والمرأة العصرية ؟

ويرد فضيلة الشيخ « أحمد حسن الباقورى » :

– تؤدى المرأة العصرية دوراً هامًّا فى الحياة العامة .. ، وخروج السيدات

للعمل ضرورة اقتصادية واجتماعية ، فرضتها ظروف متعددة ومتشابكة .. ، ولكنى أعتب على المرأة المسلمة عدم التزامها بالزى الإسلامى .

وهذا الزى الشرعى فى صالح المرأة وجمالها على طول الخط .. فهو يُظهر أجمل مافيها .. ، وجهها وكفيها ، وكم يبدو وجه المرأة مثل القمر عندما يحيطه الخمار ، ويختفى ماعدا ذلك من معالم غير جميلة بالمرة .

وفى رأيى أن الملابس الحديثة للمرأة ، ماهى إلا مؤامرة ضد أنوثتها .

وكم أتمنى أن يكون للمصريات زى محتشم جميل رخيص ، يناسب الشروط الشرعية لملابس المرأة ، ويساعد على تحقيق السلام الاجتماعى ، عندما يقضى على المنافسات والمهرجانات اليومية للمرأة العاملة .

تتزين وتتعطر :

وزينة المرأة المسلمة ؟

– للمسلمة أن تتزين وتتعطر ، ولكن فى حدود المعقول ، فلا تغير من خلق الله ، ولا تقصد بزينتها وعطرها الفتنة ، والرسول عليه السلام أمر المرأة بالتزين ، ففى حديث رواه صاحب (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) من أحاديث الرسول عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : مدت امرأة من وراء ستر يدها بكتاب إلى رسول الله ، وتساءل الرسول ﷺ : أيد رجل أم يد امرأة ، فقالت بل امرأة ، فقال لو كنت امرأة لغيرت أظافرك (بالحنّاء) والكلمة الأخيرة هذه لناقل الحديث .

إذًا فالدعوة صريحة لكل أنثى أن تعتنى بجمال يديها ، وأن تصبغ أظفارها بغرض التجميل .

وضوء .. بالمانيكير .. والباروكة :

– مع استحداث طرق جديدة لتلوين الأظفار تمنع وصول ماء الوضوء والغسل إلى الظفر هل نستمر مع الأخذ بهذا ؟

– فى السنة المؤكدة مالا يمنع الوضوء مع لبس خاتم أوسوار ضيق يمنع وصول الماء إلى ما تحته من جلد ، ولا يشترط تحريك الخاتم لصحة الغسل أو الوضوء .

والخاتم أو السوار هنا للتجميل وليس للضرورة .. ، بالقياس يكون الوضوء صحيحاً إذا لم يصل الماء إلى الظفر ، خاصة وأن الظفر جزء لا تدب فيه الحياة مثل الجلد .

وقد أخذ بهذا الرأى مالك وابن حنبل .

– والمسح على الباروكة فى الوضوء ؟

– يصح الوضوء هنا كذلك ، لأن الرسول أجاز المسح على العمامة للتيسير .

إن الدين يسر لا عسر ، وعلينا أن نلتزم جانب التيسير حتى لا ينفر الناس من الدين .

الدين .. حرية لا قيود :

لقد ابتعد المسلمون عن تعاليم الإسلام عندما تشدد بعض رجال الدين ، وأصبحت الفتاوى تقال للناس فتصور لهم هذا الدين أنه مجموعة من القيود ، فاستصعب الناس الإسلام ، وبدأ العمل بشرائعه يقل يوماً بعد يوم .

الباروكة .. حلال !! :

– فيما يتعلق بالباروكة .. ألم ينه رسول الله عنها عندما لعن الواصلة والمستوصلة ؟ .

– معذرة .. فهذا فهم خاطئ للحديث .. والسيدة عائشة فسرت هذا الحديث على أن الرسول كان يقصد به من تصل رجلاً أجنبيًّا وهى الواصلة .. والمستوصلة هى التى تتوسط بين رجل وامرأة فتصل بينهما فى الحرام .. وهذا فى رأيى هو المعنى الصحيح للحديث ، خاصة وأنه فيما رُوِىَ عن الصحابة والتابعين ، أن بعض النساء كُنَّ يتبرعن بشعرهن للمساهمة فى نفقات الجهاد ، كيف يسير المعنى الذى ذكرته مع هذا وطبعًا كان هذا الشعر يباع بغية استعماله ؟

– ابن صعيد مصر ينادى بأفكار تحررية ويدعو إلى العصرية فى فهم أحكام الدين ..

أليس هذا غريبًا ؟

– ليس غريبًا بالمرة .. لقد عانيت فى صغرى من جهل بعض من يدَّعون العلم والمعرفة بأصول الدين .. وحرمنى جهلهم هذا كثيراً من مباهج حياتى .. كطفل وصبى .

ولما درست القرآن والشريعة الإسلامية اكتشفت كم ضللنى هؤلاء ، ووجدت أن رسالتى يجب أن تكون تبسيط أصول الشريعة الإسلامية ومحاربة البدع بها ، وقد وجدت أن الدين فى جوهره سعادة الإنسان وراحته ومصلحته ، وليس قيودًا وتشددًا وتعصباً !

– هل يمكننا الآن أن نلخص منهج فضيلتك فى الدعوة للإصلاح ؟

منهج الإصلاح :

هذا المنهج يتضمنه مشروع تحت الإعداد ويتخلص فى خمس نقاط هى

– الدين فى فطرة الإنسان نعمة .

– تيسير التدين استيفاءً لنعمة الدين .

- الدين على لسان الأنبياء واحد .
- العصبية الدينية آفة المجتمع الإنسانى .
- العصبية المذهبية آفة المجتمع الإسلامى .

وتعتز المكتبة العربية بوجود ستة مؤلفات لفضيلة الشيخ « أحمد حسن الباقورى » وهى :

١ - مع القرآن بين الرواية والدراية .
٢ - خواطر وأحاديث .
٣ - معالم الشريعة فى أصول الفقه .
٤ - أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية .
٥ - من دلائل النبوة .

وأخيرًا صدر فى عام ١٩٧٣ أحدث كتبه باسم (عالم الصيد) .

ألا ترى فى موضوع الصيد طرافة عندما يكتبه واحد من أعلام الفكر الإسلامى فى جيلنا ؟

نافذة على عالم الصيد :

- يقول البعض هذه الملاحظة ، ولكنى لا أرى أن هناك خروجاً عن خط الدراسات الإسلامية ، ولا العربية ، ولا أرى فيه دراسة بعيدة عن تخصصى .

ذلك أنى تناولت عالم الصيد من جوانبه التاريخية عامة ، والإسلامية خاصة .

لقد حث رسول الله عليه السلام أصحابه على ممارسة الصيد ، والركوب للرياضة والترفيه .

كما أن هناك العديد من المواضع فى التراث العربى تحفل بفصول كاملة عن مغامرات الصيد ، وعن طبائع الحيوانات والطيور وعن آلات الصيد .

وأنا مارست هواية الصيد منذ صغرى عندما كنت أصطاد السمك مع رفاق الصغار من نهر النيل ، ثم مارسته بعد ذلك بسنوات فى أدغال الهند .

ولن أنسى أنى مكثت سبع ساعات كاملة أعلى إحدى الأشجار أرقب نمراً فى أدغال الهند .. كان علىّ فى هذه الساعات أن أكتم أنفاسى وألا أحدث أى صوت .

ولن أخفى عليك .. فقد فشلت رغم هذا فى اصطياد ذلك النمر .

الدعوة والداعية :

– هل يدخل هدف إعداد الدعاة ضمن أهداف معهد الدراسات الإسلامية ، ويدق الشيخ الباقورى بأصابع يده على مكتبه المتواضع ويقول بعد تفكير .

– تمر حركة الدعوة الإسلامية فى الوقت الحاضر بفترة ركود بالمقارنة بعصور سابقة .. كان الدعاة فيها أكثر إخلاصا كما كانت الظروف وقتها أكثر ملاءمة .

فالتيارات السياسية فى العالم من جانب الشرق والغرب تعرقل عمل الداعية وتشل حركته فى مناطق الدعـــوة التى كان يتحرك فيها بحرية أكثر فيما مضى .

ولا تنسى كذلك شخصية الداعية وهدفه من عمله .. فالظروف الاقتصادية فى العالم كله تفرض على مثل هؤلاء الذين يغتربون فى مجاهل أفريقيا وآسيا التنزامات تقلل من جهدهم الموجه للدعوة .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يجب أن تتضافر الإمكانيات المادية للدول الإسلامية لتدعيم حركة الدعوة .

اللغة والتاريخ :

– وماذا عن ثقافة الإنسان المسلم البعيد عن الدراسة والتعليم المتخصص ؟

– القرآن ثم الحديث هما منبعا الثقافة الإسلامية الأساسية ويأتى التطبيق فى

السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى منذ الهجرة وحتى الفتح الإسلامى ، ولما جاء الفتح العربى للأندلس بدأ الشرق يطعم ثقافته بإنتاج الفكر الغربى ثم بدأ يعطى هو الآخر للغرب تجربته وفكره .

وبعدها جاءت الحملة الصليبية فكانت لقاء ثانيا بين الحضارتين تبادلنا فيه الخبرة والتجربة والالتحام فأفادتنا واستفدنا ويقول أحد المستشرقين الأعلام علمنا المسلمون الحب عندما دخلوا الأندلس .

أما الثقافة الإسلامية المعاصرة فهى ثقافة شوهاء مختلة بلا شخصية ويعود هذا إلى قصور مصادر هذه الثقافة والإحساس بالضعف الذى يسيطر على الإنسان المسلم تجاه كل ما هو غربى . نضيف الى هذه العوامل التدهور الاقتصادى والسياسى الذى تعرض له العالم الإسلامى فى القرنين الماضيين والذى صنع هوة ثقافية قطعت سلسلة الثقافة بين المسلم القديم والمسلم المعاصر.

قابل هذا فى نفس الوقت غزو ثقافى مركز من جانب الغرب فرض بعده فكره وثقافته على الإنسان المسلم ، ويضيف الشيخ الباقورى وقد أطلق عبر النافذة التى تطل على عدد من المبانى الجديدة ويردد كلمات كأنها خلاصة الحديث .

يجب أن نلوذ باللغة العربية والتراث العربى لنحفظ للإنسان المسلم العربى شخصيته المتميزة .

كنت أحس العطش إلى المعرفة ، ساعة بدأت حديثى ، ومازلت أحس هذا العطش يزداد ولكنى اضطررت إلى إنهاء الحوار . فالمنهل سخى العطاء .. أصيل الفكر . لا تحس مع حديثه مللا ولا تريد لحواره نهاية .

كان علىّ أن أجمع وريقاتى وأترك فضيلة الشيخ « أحمد حسن الباقورى » يستعد لمراجعة (بروفات) كتابه القادم بعنوان (الصفوة المحمدية) .

لقاء مع رائدة مصرية : د . سهير القلماوى *

لبست برنيطة .. لأرضى المحافظين فى الجامعة ..
دائرة اهتمام المرأة أكبر من الفستان والبودينج ..

كانت كلمة (أول) هى أكثر الكلمات ترددًا فى أثناء لقائى بها ، وقد طال حديثنا وتشعبت موضوعاته ، ذلك أنى كنت أتحدث مع أول فتاة مصرية لحقت بالجامعة وأول أستاذة جامعية مصرية ، وأول رئيسة لقسم اللغة العربية فى كلية الآداب ، وأول رئيسة مجلس إدارة فى مصر.

كنت فى حديث مع بطلة لسلسلة طويلة من التحديات والمعارك خرجت من كل معاركها منتصرة ، وهى الآن تحمل على رأسها تاج انتصارها .. هالة من الشعر الأبيض تحكى قصة من أعظم قصص الكفاح التى خاضتها المرأة المصرية فى هذا القرن .

تقول « د . سهير القلماوى » :

كانت أولى معارك التحدى التى خضتها ، هى معركتى مع أسرتى ، فقد صممت على مواصلة تعليمى العالى .. إما أن أسافر للخارج ، أو أن ألتحق

* يونية ١٩٧٦

بالجامعة المصرية . وكان من الصعب إقناع أسرتى المحافظة بهذا .. وحاولت الانتحار .. وأخيراً وافق والدى على إلحاقى بالجامعة المصرية ، لأنه من غير (اللائق) أن تسافر ابنة السبعة عشر ربيعاً إلى الخارج وحدها .

وكان التحدى الحقيق ، هو حرصى على دراسة اللغة العربية ، كيف ؟؟ وقد تلقيت كل علومى بالإنجليزية فى الكلية الأمريكية ، وأنا لا أعرف من العربية إلا اليسير جدا ، وشعرت بالغربة وسط زملائى فى أول الأمر .

الرجل .. وراء العظمات :

لن أنسى فضل أساتذتى ، امتدت لى أيديهم بكل المساعدة والتوجيه ، ولن أنسى أثر الدكتور « طه حسين » على استمرارى فى هذا الطريق الذى قطعت فيه شوطاً كبيراً ، وهو دراسة اللغة العربية .

ثم أعددت أول رسالة للدكتوراه عن الأدب الشعبى ، بعدها بدأ هذا العلم يدرس لطلبة قسم اللغة العربية .

– هذا عن رحلة التعليم .. وماذا عن رحلة الوظائف ؟

وترد الدكتورة « سهير » :

– لقد تحملت عبء أكثر من مسئولية أثبت فيه كفاءة المرأة المصرية. أهمها أنى كنت رئيسة لقسم اللغة العربية فى كلية الآداب لمدة عشر سنوات ، أحسست بعدها أنى أثرت فى جيل من الشباب العربى إنسانيًّا إلى لجانب التأثير العلمى ، وأنا لا أذكر أحدًا تولى مثل هذا المنصب مدة طويلة كهذه ، وعديد من تلاميذى يحتلون الآن مراكز مرموقة فى البلاد العربية والإسلامية .

الكتاب .. خدمة لا سلعة :

تحد آخر واجهته ، عند ما فرضتُ على الحكومة أن الكتاب يجب أن يكون خدمة لا سلعة ، عندما توليت رئاسة مؤسسة الكتاب . وحاربت وقتها من أجل أن أثبت أن هدف المؤسسة هو نشر الوعى الثقافى وليس الكسب المادى .

وبدأتُ فعلاً بكتاب الطفل ، وفرضت شكلاً وسعراً جديداً على القطاع الخاص ، كما وضعت مفهوماً محددًا لمضمون هذا الكتاب .

وأصدرت المؤسسة فى هذا الوقت أول موسوعة شاملة للطفل العربى ، طبعًا لم تحقق ربحًا ماديًّا .. لكننى حققت أملا كبيرًا فى أن أجعل الثقافة فى متناول يد كل طفل مصرى .

– وبعد هذه المعارك وغيرها .. ، هل أضافت المرأة جديدًا إلى الحياة الاجتماعية المصرية بخروجها إلى ميادين التعليم والعمل ؟

– فى رأيى أن المرأة المصرية استطاعت أن تخرج من دائرة الفستان والبودينج ، وأن تقتحم كثيرًا من الميادين وأن تتفوق فيها .

الحضانة ضرورة :

– ولكن ألا يؤثر خروج المرأة للعمل على أجيال النشء ؟

– خروج المرأة للعمل ضرورة اقتصادية وحضارية ، كما أن الأم لم تعد قادرة وحدها على تربية ابنها ، ذلك أن تعقد الحياة المعاصرة يستلزم إشرافًا جديدًا مع ما يحتاجه الطفل من حنان الأم وحبها .

إن إنشاء دور حضانة قريبة من أماكن عمل المرأة تشرف عليه طبيبات ومتخصصات ، اجتماعيات ونفسيات ، ومخالطة الصغير لأقرانه من نفس السن

أنسب بكثير من وجوده مع أمه وحده بين جدران البيت الضيق . إن دائرة معارف الطفل الحديث يجب أن تتسع لتشمل نواحى كثيرة لم تكن محل اهتمام الأجيال الحالية والسابقة .

– طوال هذه المرحلة الشاقة . ألم تتخل عن أنوثتك أبداً ؟

– أنا سعيدة بأنوثتى ومؤمنة بأن دور الأنثى لا يقل عن دور الرجل ، بل ربما كان دورها أعظم ، فهى تحمل فى داخلها سر الحياة .. أما هؤلاء اللواتى يتشبهن بالرجال عندما يخضن الحياة العامة ، فهؤلاء لا يختلفن عن الرجال حتى لو لم يقتحمن الحياة العامة .. فهذه هى إمكاناتهن .

الجمال والتجمل :

– وما هو الجمال فى رأيك ؟

– الجمال هو الإحساس بالغير .. عكس الأنانية ، والجميلة هى التى لا تتحدى الجميع وتظهر بمظهر شاذ لمجرد أن ذلك يرضيها ، عندما طلبوا منى أن أغطى رأسى فى الجامعة لم أتحد رغباتهم ولبست (برنيطة ..) وكانت أيامها آخر موضة .

– والزينة ؟

– الزينة ضرورة للرجل والمرأة معًا ، فالرجل يتزين كل صباح قبل خروجه من منزله . والمرأة كذلك يجب أن يبدو شكلها مريحًا .. أما أن تكون الزينة هدفاً فى حد ذاته فهذا شيء مزعج . قليل من التجمل مقبول ، أما أن تبدو المرأة وكأنها تمثال نفرتيتى ، فهذا فى غير صالحها . .

– وعن العمل السياسى ؟

وتقول د . سهير القلماوى فى انفعال وحماس شديدين ..

– لا خير فى العمل السياسى المأجور .. فالعمل السياسى إذا لم يكن عملا

تطوعيًّا أصبح وظيفة لها عيوب كل الوظائف .

– وسن المعاش ؟

– نحن لا نبلغ الستين فجأة .. لابد أن نخطط للنشاطات التى ستشغلنا فى هذه السن .

إن فرحتنا بما أنجزنا من أعمال خلال سنوات عديدة وفرحتنا بأولادنا الذين كبروا معنا ستجعلنا نسعد بهذه السنوات .

ومازالت شعلة النشاط تضىء الحياة من حولها وتملؤها حركة وعملا .. استمرارا فى رسالتها نحو الأجيال الجديدة . ومازالت الدكتورة سهير القلماوى تشغل أكثر من منصب ، فهى أستاذ غير متفرغ للأدب الحديث فى كلية آداب القاهرة ، وأستاذ زائر فى معهد البحوث والدراسات العربية ، وأمينة عامة للاتحاد النسائى العربى ، وعضو المجلس الأعلى للفنون والآداب ، ومقررة لجنة ثقافة الطفل ولجنة الفنون الشعبية به . ونائبة لرئيس جمعية الأدباء المصرية ، وعضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب المصرى ، ورئيسة جمعية خريجات الجامعة .

مع الشاعر الذى كتب «لأم كلثوم» ٢٥٠ أغنية*

* الشوق . . . هو الزيت لقنديل الحب .
* الذين نسمعهم الآن مؤدون وليسوا مغنين !
* بقيت فى الظل بعد أن فقدت إلهامى الوحيد . . «أم كلثوم»

لم تستطع آثار الأيام أن تطفئ بريق نظرته المعبرة ، ولم تستطع تجاعيد السنين أن تضعف ابتسامته الدافئة ، كذلك لم تستطع بحة صوته أن تضعف النبض فى كلماته التى طالما حركت قلوب الملايين خلال نصف قرن مضى .

أطلقوا عليه اسم (شاعر الشباب) ، ربما لأنه عاش يحمل فى صدره قلباً شاباً ظل يأخذ من الحياة التجربة ويعطيها الحب والأمل . .

ربما لأنه عاش يحمل فى يده قلماً ساحراً يعطى لنا أحلى كلمات تغنى بها اللسان العربى فى عصرنا هذا .

وكانت «أم كلثوم» أعظم قيثارة أخرجت هذه الكلمات على أوتار صوتها الذهبية . . فأعطتها خلوداً وبقاء ، سيعيش ما دام هناك قلب يخفق بالحب ، ولسان ينطق بالغناء .

كنت مشوقة لأعرف ماذا صنعت السنون بشاعر الشباب ، لكن كلماته الأولى

* يناير ١٩٧٥

صدمتنى عندما جاءنى صوته عبر أسلاك التليفون . . لقد رفض فكرة اللقاء وقال لى :

– «ماذا سأقول لك . . أنا فرضت على نفسى البقاء فى الظل بعد وفاة «ثومة» فقد كانت إلهامى الوحيد . . وبعدها لم يعد عندى ما أقوله لك وللناس .

– وهل تحرمنى من لقاء الرجل الذى أسعد وأثرى فؤادنا فى كل الأقطار الناطقة بالعربية ؟

وأحسست ساعتها «بأحمد رامى» يبتسم فقد صمت قليلاً وقال بصوت هادئ :

– أهلاً وسهلا . .

فى البيت الذى عاش فيه منذ أكثر من ثلاثين عاماً بحدائق القبة . . وفى نفس الصالون الذى شهد مولد العديد من أغنياته ، استقبلنى بود شديد . . وطال حديثه معى . . وكان نصف كلامه شعراً ونصفه نثراً . . وأحسست أنى أجالس عملاقاً برغم عوده النحيل الدقيق . . قال لى «رامى» :

على أنغام هذا (البيانو) رددت «أم كلثوم» كلمات عشرات من أغنياتى . . كانت أذكى سيدة عرفتها فى حياتى . . لم أعرف أحداً يُعطى الكلمة حقها وهو ينطقها مثل «أم كلثوم» . . حتى حديثها العادى كان أغنية رقيقة تضع هى كلماتها ولحنها .

«أم كلثوم» ظاهرة لن تتكرر . . فهى لم تكن مجرد صوت جميل مثقف حساس ، وإنما كانت قلباً اتسع للعالم كله حبا وحناناً . . وإنساناً ملأ المجالس مرحاً وظرفاً .

ليالى الأنس :

– معروف أنك كنت فارساً فى فرسان ندوات الأدب والفن التى كانت تزخر بها القاهرة فى النصف الأول من هذا القرن فما تفسيرك لاختفاء ظاهرة الندوات الأدبية من حياتنا الثقافية ؟

– لقد كنا نعيش شبابنا فى عصر هادئ . . لم يكن للحياة هذا الإيقاع السريع المضطرب المقلق . . كنا نحس باليوم طويلاً تمتد ساعاته مسترخية تدعونا للحياة العريضة . . لم تكن فى الحياة كل هذه المشاكل . إن اليوم يبدأ مع الإنسان المعاصر بالمشاكل . ويمضى هكذا حتى يعود إلى بيته محتاجاً للراحة التى قد لا يجدها . . فأين ومتى يلتقى بالرفاق ؟ ! وكيف تنطلق الضحكات من القلب المثقل ؟ .. وكيف ترتسم الابتسامة على الشفاه المتعبة ؟.. من أين تأتى ، (ليالى الأنس) ؟ .

حتى الفن المعاصر . . لا أحس فيه أو معه بالهدوء . . فهو فن قلق . . متوتر . . يعكس صورة هذا الجيل الشقى . . وأنا أقول إنه جيل شقى لأنه ضل طريقه إلى السعادة . . وهى الراحة الجسدية والنفسية والاستمتاع الهادئ بالحياة . لقد كانت فى القاهرة عشرات الندوات التى يجتمع فيها أهل الفن والأدب والفكر والسياسة وتدور بينهم المناقشات الجادة والطريفة . وكانت هذه الندوات تعقد فى صالونات الأدباء وفى المنتديات العامة ، بل وفى المقاهى . . وكان يؤمها مشاهير هذا العصر من الفنانين والأدباء والمفكرين . . أين هذه الليالى الجميلة فى حياتنا العصرية ؟

الحب العصرى :

– والحب العصرى ؟

– حب سهل . . سريع . . يخلو من دماء الرومانسية التى عشناها . . ليس

فيه هذا الحرمان العظيم الذى يشعل قلوب المحبين . . والمثل الشعبي يقول . . « اللى فى الإيد تزهده العين» فكيف يكون الحب ؟ والمدنية تقدم للمحبين كل وسائل الاتصال وفرص الالتقاء . .

أين الشوق ؟ وهو الزيت فى قنديل الحب ؟

– وما رأيك فى مستوى الأغنية المصرية الحديثة ؟

وسألنى «أحمد رامى» بدهشة شديدة . . الأغنية ؟ . . أين هى الأغنية ؟ هل تسمين ما ينطلق من محطات الإذاعة وما يُسجَّل على الأشرطة والاسطوانات أغانى ؟.. إنها مأساة أن نعتبر هذا الكلام الردىء . . الضعيف . . الهش غناءً . .

إن الغناء هو كلمة حلوة . . كلمة عذبة . . حتى لو كان موضوعها حزيناً . .

قليل من الشعراء يكتب الآن بعض الكلمات الصالحة للغناء لكن . . تأتى بعد هذا مشكلة الأصوات فأغلب الأصوات التى نسمعها الآن هى لمؤدين وليسوا مغنين .

القمر هو القمر :

– وماذا قلت عند ما وضع الإنسان قدميه على سطح القمر . . ؟

– القمر ليس فى معدنه . . وإنما فى نوره الفضى واستدارته ، وفى ظهوره وسط ظلمة الليل وسكونه ، الذى يبعث على التفكير والذكرى . . وأنا ما زلت أحتفظ حتى يومنا هذا بعادتى القديمة فى السهر طول الليل مع القمر . . فهو ما زال القمر ، إنه يعيد إلىّ ذكريات يوم كان ثالثنا فى جلسة هنا أو هناك . ويعطينى نوره الرقيق فى سكون الليل إحساساً متجدداً بأنى كنت صادقاً عندما قلت يوماً . .

غمرتنى سكينة الكون حتى كدت أصغى إلى حديث السكون

الشعر . . . موسيقى :

– بعد آلاف الأبيات من الشعر التى كتبتها . . وبعد عشرات الدواوين التى تفخر بها المكتبة العربية . . ما هو الشعر عندك وما هو مصدر وحيك ؟

– الشعر موسيقى قبل أن يكون أدباً . . لذلك وضعت له تفاعيل وقواف تجعل لاتحادهما معاً . . رنيناً يُشجى السامع . ومصادر وحيِ الشعر عندى اثنان . .

الأول : يأتى من داخلى . . من التجاوب بين روحى ومن أحب سواء كان شخصاً أم وطناً أم أى شىء آخر . . وهنا يكون الصدق عميقاً فى الإحساس والتعبير معاً .

أما المصدر الثانى : فهو انعكاس من حدث خارجى على نفسى ، كسماع قصة أو رؤية منظر جميل . . هذه هى مصادر الوحى عندى ولكن . . ما دام هناك وضوح فى الصورة ، وبيان فى التعبير ، فالشاعر صادق فى تصويرها وفى التعبير عنها . . وللوصول إلى إعجاب القارئ أو السامع ، لابد من اختيار اللفظ الحلو . . والمعنى الواضح ، وموسيقية الكلمات وجمال القافية .

– أنت صاحب أحلى كلمات تغنى بها جيلنا . . فما هو أعلى مبلغ أخذته ثمناً لأغنية ألفتها ؟

– هو فى الحقيقة أجرى عن عشر أغان ، كانت أول ما كتبت «لأم كلثوم» ثم أخذتها شركة إنجليزية للأسطوانات وسجلتها ، ورفضتُ أن أتقاضى أجرى من الشركة عن تأليف الأغنيات . . ولما عرفت «أم كلثوم» بذلك غضبت وقالت «لازم تاخد حقك . . أنت هاتبقشش على الشركة الإنجليزية ؟» وإرضاءً لها ذهبت لصاحب الشركة فقال لى . . «عاوز كام فى الأغنية ؟ . قلت له (عشرة جنيه) .

فدهش الرجل . . وبينما هو يُعد الإيصال رأيت عنده (جهاز جرامافون) قديماً يستعمله فى إسماع زبائنه الأسطوانات فسألته عن ثمنه . . قال (تسعة جنيه ونصف) . . وأخذت الجهاز . . ووقعت على الإيصال . . وظل هذا «الجرامافون» ذو البوق الكبير فى غرفة نومى حتى سنوات قريبة . . كأغلى شىء عندى لأنه كان ثمناً لأول أغنياتى «لأم كلثوم» .

من خايف . . إلى يا مسهرنى :

– ما هى أحب أغنياتك التى غنتها «أم كلثوم» إلى نفسك ؟

– غنت لى «أم كلثوم» ٢٥٠ أغنية . أولاها كانت . . خايف يكون حبك لىّ . . شفقة علىّ . . وآخرها . . يا مسهرنى . . كتبتها كلها بإحساسى ونبضى . . كنت أقضى الليل كله أبحث عن كلمة . . كلمة واحدة أحس أنها تعبر عما أريد أن أقوله .

وخلال أربعين عاماً من العمل المشترك بينى وبين «أم كلثوم» كنت أسابق نفسى فى تقديم أصدق الكلمات . . لقد راحت «أم كلثوم» . . وراح مصدر إلهامى . . بعد أن قالت :

يا مسهر النوم فى عنيه   سهرت أفكارى وياك

الصبر دَه مُش بإديه   والشوق واخدنى ف بحر هواك

وأحسست بكلمات (شاعر الشباب) تختنق وهو يتذكر «أم كلثوم» ووجدت لزاماً علىّ أن أحترم آلام الفراق . . وانسحبت فى هدوء لأتركه مع عالم ذكرياته .

رامى بعد ٤ سنوات من الصمت*

نفسى أمشى أشوف الدنيا
أرجع أغنى وأقول الشعر !

(أحمد رامى) الشاعر الرقيق النحيل ، ازداد نحولاً . . عندما تحدثت إليه هذه المرة وجدت صعوبة شديدة . . فسؤالى لا يصل إليه بسهولة . . وإجابته لا تأتينى بسهولة كذلك .

فمنذ الأزمة الصحية التى مر بها منذ حوالى عامين و (رامى) يلازم غرفته ، لا يتركها إلا نادراً ، فقد شهيته للطعام وقل إقباله على الحياة .

ولولا مودة قديمة بيننا ذكرته بها (السيدة حرمه) ما قبل (شاعر الشباب) أن يمنحنى هذا الوقت الممتع الذى استرجعت فيه ساعات أروع وأجمل عندما كان «رامى» يملأ مجلسه مرحاً وشعراً وحبًّا ، رصيد هذا الرجل فى قلوب الناس وآذانهم أكثر من ٥٠٠ أغنية منها أكثر من ٣٥٠ أغنية بصوت «أم كلثوم» وبرغم هذا الرقم القياسى فإن رصيده فى البنك (صفر) .

رحلته مع الحياة مستمرة بعناد وأمل بعد أن جاوز الثمانية والثمانين . ورحلته مع الغناء توقفت بعد (يا مسهرنى) فى عام (١٩٧٢) .

قال لى (رامى) وهكذا يحب أن يناديه الجميع . أحلى أغنية كتبتها كانت (رق الحبيب) وأحلى أبياتها :

ولاقتنى خايف على عمرى لا يروح منى
من غير ماشوف حسن حبيبى

قلت له :
من كتر خوفى سبقت عمرى وشفت بكره والوقت بدرى

وضحك «رامى» ضحكة الطفل الصغير برغم ما فيها من بحة الشيخوخة وقال . .

– فعلاً . . دى أحلى . . بس الأولى جديدة لم يسبقنى إليها أحد .

«وأحمد رامى» من شعرائنا القلائل الذين يتميز شعرهم فصيحاً كان أو عامياً بموسيقيته الطاغية ، لهذا كان سهلاً فى تلحينه ، عذباً فى غنائه ، قريباً من آذان المستمع ومن قلبه . قال لى «رامى» :

– أنا لا أكتب الشعر أو الأغنية على الورق أبداً . . أنا أختلى بنفسى وأغنى الكلمات والمعيار عندى فى اختيار اللفظ هو موسيقيته ورنينه فى الأذن .

وتشترك السيدة «عطيات» حرم «أحمد رامى» فى الحديث :

– كان «رامى» يجلس مع الملحن ويغنى بنفسه الكلمات وإذا أحس أن هنالك لفظاً واحداً غير مريح للأذن فهو يغيره وبسرعة .

قلت «لرامى» :

– كتبت ٥٠٠ أغنية ، وستة دواوين ، معظمها فى الوجدانيات ، ولكننا لم نقرأ يوماً وصفاً لفتاة أحلامك ، فهى دائماً كالنور يحيط بك فتغنى له . . لم تكتب يوماً عن ملامحها ، أو أوصافها . .

– فتاة أحلامى ، هى كل جمال فى الكون . . فأنا لم أعشق إلا الجمال . . جمال الصوت . . وجمال الروح . . تزلزل كيانى النظرة الدافئة ، حتى لو كانت من عيون غير جميلة ، لهذا كتبت عن الجمال والحُب غير الحسى . . وأنا أعتبر الحديث عن المرأة أو الحب بأسلوب حسى . رخصاً وانحداراً بالعاطفة وبالفن . وحتى بإنسانية الإنسان .

وتذكرت عشرات الألحان تأتينا بصوت «أم كلثوم» ، وتذكرت معها صوراً جميلة انطبعت فى أذهاننا منذ كنا صغاراً .

ياللى القمر من بهاك . . . نور فى قلبى سناه
ولما أشوفك يروح منى الكلام وأنساه
وازاى أقولك كنا زمان والماضى كان فى الغيب بكره

قال «رامى» :

– عندما بدأت أدخل ميدان كتابة الأغنية كان الموجود فى السوق أشيا مخجلة (الستارة اللى فى ريحنا) و(اللى جرى فى المندرة) . . وأقنعتنى «أم كلثوم أن أكتب أغنيات بالعامية لتكون قريبة من أذن المستمع العادى . وكنت أول شاء يكتب الأغنية العامية . وبعدى بسنين طويلة قدم «شوقى» بعض تجارب بالعامية وطبعاً كان مكسباً كبيراً للأغنية .

وتزداد رغبتى فى أن أحدث «رامى» عن «أم كلثوم» ولكنى أتحاشى الاقتراد من دائرة أحزانه وأسأله عن كُتّاب الأغنية الذين ظهروا بعده . . قال :

– بعد قيام الحرب الثانية ظهرت طبقة من السميعة غير المثقفين ، وهم المعروفة بأغنيات الحرب ، وبدا الذوق الفنى العام يتغير ليلائم هذه الطبقة ، وكان دخول عدد من مؤلفى الأغانى الجدد إلى الساحة أمراً طبيعياً حتى «أم كلثوم» . .

بعد أن ظلت ترفض أن تغنى أى كلمات إلا من تأليفى بدأت تقبل كلمات شعراء آخرين . . وفى الوقت نفسه حتى تبعد عن نفسها تهمة اعتمادها علىّ فى نجاحها ، ولم يهزنى القرار .

وغنت أم كلثوم لغيرى من الشعراء

وأسأل « رامى » عن شعوره وهو يسمع «أم كلثوم» تشدو بكلمات لشاعر غيره فيقول :

— ولا حاجة . . كنت أستمتع بصوتها دائماً . . فعندما تأتى الكلمات من حنجرة « ثومة » تصبح شيئاً آخر . . رائع وجميل .

وألمح آثار الإجهاد على وجه (شاعر الشباب) ، وأخشى أن تكون جلستنا قد طالت . . ولكنه يتمسك بوجودنا معه :

— من زمان وأنا بعيد عن الناس . . نفسى أشوف الشارع . . أصعب يوم شفته فى حياتى كان يوم رجلى ما اتكسرت . . نفسى أمشى . . أشوف الدنيا نفسى أرجع أغنى وأقول شعر . .

وتذكرت هذا البيت الذى كتبه « رامى » يوماً فى شبابه المبكر . . وأحسست أنه كتبه من أجل هذه اللحظة :

فإذا سكت فقد حرمت شكايتى ولرب شكوى نفست أكدارى

وأردت أن أخرج « برامى » من حصار الألم . . فقلت له . . حدثنا عن أسعد يوم فى حياتك ويلتفت « رامى » ناحية شريكة حياته ويقول :

— لسه فاكرها . . هى طالعة السلم بملابس العرس البيضاء . . وأنا واقف فوق منتظرها ولما قربت جريت عليها وبوستها من كتفها . . أنا فاكر اليوم ده زى ما يكون حصل إمبارح . .

وهل حققت الحياة « لرامى » كل آماله ؟

– أنا لم أتمن فى حياتى شيئاً . . لم أكن طماعاً أبداً . . دائماً كنت قنوعاً راضياً . . وإن كنت طموحاً .

وماذا عن طموح الشباب ؟

– كان طموحى أن أصبح أحسن شاعر فى عصرى . . وأظننى كنت كذلك .

وأحسست كأن الارتعاشة قد زادت فى صوت « رامى » . . ولاحظت أن فترات الصمت بين كلماته قد طالت .

وكان لزاماً علىّ أن أجمع أوراقى وأودعه ورأيت على وجه « رامى » ابتسامة واسعة أكدت فعل السنين وآثار المرض الأخير .

مع السندباد الدبلوماسى *

ما زلت خايف أقول اللى فى قلبى
قابلت محمد عبد الوهاب مصادفة . . فغنى من تأليفى . .
رحلت أمنياتى برحيل صديقتى «أم كلثوم»

انضم هذا الأسبوع كتاب (رحلة مع الظرفاء) للسفير أحمد عبد المجيد إلى مكتبة الكونجرس الأمريكى الشهيرة . وهذا ليس الكتاب الأول للمؤلف ذاته ، إذ تضم مكتبة الكونجرس أربعة كتب أخرى له هى : (ديوان الهمسات) ، و (السندباد الدبلوماسى) ، و (أضواء على الدبلوماسية) ، و (لكل أغنية قصة) .

عرفت اسمه أول ما عرفته من خلال أحلى ما غنى «محمد عبد الوهاب» (كلنا نحب القمر ، والقمر بيحب مين) ، (وخايف أقول اللى فى قلبى) ، و (مريت على بيت الحبايب) . ولم أكن أعرف أن (أحمد عبد المجيد) صاحب هذه الأغنيات الرقيقة هو نفسه «أحمد عبد المجيد» صاحب ديوان (همسات) ، وهو فى الوقت نفسه السفير «أحمد عبد المجيد» الذى تنقل بين مختلف قارات العالم سفيراً لمصر ، ثم مندوباً دائماً لمصر فى الجامعة العربية حتى عام ٦١ ، حيث ترك العمل الحكومى وعاد إلى هوايته القديمة . . الكتابة والشعر . .

---

* أكتوبر ١٩٧٨

وعبر رحلة السنوات السبعين . قدم «أحمد عبد المجيد» للمكتبة العربية ستة عشر كتاباً بين مؤلف ومترجم ، تتميز بتنوع موضوعاتها بين دواوين الشعر والقصص والمسرحيات المترجمة ، والدراسات الدبلوماسية وأبحاث فى تفسير الأحلام ، وأعترف أنها كانت مشقة أن أبدأ الحديث مع إنسان موسوعى مثله . . ولكنى لم أكن أعرف أن «أحمد عبد المجيد» ، صاحب (رحلة مع الظرفاء) ، وهو آخر كتبه ، هو واحد من أظرف من صادفت فى حياتى .

حديثه ابتسامة طويلة . . وفكر أصيل وثقافة رفيعة . . وصوته تأمل عميق وفكر ناضج .

(خايف) مع «عبد الوهاب» :

– كان لقائى «بعبد الوهاب» مصادفة عن طريق أحد أصدقائى فى نادى الموسيقى الشرقى سنة ١٩٢٥ . ولم أكن أتصور أن هذا الكلام قابل للتلحين . . فقد كنت طالباً فى الحقوق وقتها ، وكنت أسجل يومياتى وخواطرى فى كلام منظوم لمجرد التسلية ، وفى هذا اللقاء الأول أخذ «عبد المطلب» منى (خايف أقول) ، و (كلنا نحب القمر) و (فى الجو غيم حجب القمر) ، وبعدها قدمت مجموعة أغان ، وغنى «عبد الوهاب» منها حوالى عشرين أغنية ، إلى جانب مجموعة أخرى لمطربين آخرين من أشهرها ، أغنية «عبد المطلب» (السبت فات والحد فات) .

ولم يمنعنى من الاستمرار فى كتابة الأغانى إلا عملى فى النيابة . . فقد تصورت أنى أقف فى المحكمة أستجوب المتهم فيرد . (خايف أقول اللى فى قلبى) .

وإن كنت قد استمررت فى كتابتى للشعر الفصيح الذى بدأت معه منذ سن صغيرة جدًا .

وقد عاصرت مجموعة من أساطين الفن والشعر فى مصر وحضرت جلد

وصالوناتهم . ولهذا بصماته الواضحة على حياتى . من هؤلاء (شوقى بك) ، «وحافظ إبراهيم ، وأحمد رامى ، وأم كلثوم ، وعبد الوهاب» .

«أم كلثوم» . . أمل حياتى :

— ما هى أمنيتك التى لم تتحقق عبر رحلة هذه السنين ؟

— كانت واحدة من أعز أمنياتى أن تشدو «أم كلثوم» بأغنية من كلماتى . . وبرغم أنى كنت من أصدقائها فإن الله لم يشأ أن يحقق لى هذه الأمنية ، ورحلت «أم كلثوم» ورحل معها آخر أمل لى فى تحقيق هذا الحلم .

— ما رأيك فى مستوى كلمات الأغنية العربية الحديثة ، خاصة وأنك كنت رئيساً للجنة النصوص فى إذاعة القاهرة لفترة غير قصيرة ؟

— لا ينكر أحد أن هناك عدداً كبيراً من المؤلفين الشبان الذين يضيفون كل يوم أثراً مضيئاً من الكلمات الرقيقة منهم : «صلاح جاهين ، والأبنودى ، ومجدى نجيب ، ومرسى جميل عزيز ، ومأمون الشناوى وغيرهم» .

إلا أن هناك عشرات المدعين الذى استطاعوا التسلل إلى الميدان ، وأشاعوا بين الجمهور حالة من فقدان الذوق ، فظهرت مجموعة من المؤدين الذين استغلوا حب الناس لكل ما هو غريب وخفيف فقالوا (أى كلام) ، فزادوا من انخفاض مستوى المستمع ، وأذكر أنى تقدمت (من باب المرح) ، باقتراح للإذاعة وقت أن كنت رئيساً للجنة النصوص بها ، لصرف (بدل عدوى) ، لأعضاء اللجنة حماية مما كان يصلنا من سطور يسميها أصحابها شعراً غنائيًّا ، وهى كلام لا يمت للشعر بصلة ، فهى بلا وزن ولا قافية ولا موسيقى ، وليس بها حتى ماء الشعر .

— وما سر مسحة الحزن التى تغلف أغلب أغانينا الحديثة ؟

— الفن انعكاس لواقع الحياة ، كما أنه انعكاس للبيئة والمزاج الشخصى

لصاحبه . وهو يتأثر بكل ما حوله . . حتى بالحالة الاقتصادية . وقد يكون لتعقد الحياة اليومية للإنسان المعاصر — ليس فى مصر وحدها ، ولكن فى العالم كله — أثر فى وجود هذه المسحة الحزينة على الفنون عامة .

ونحن نلاحظ أن المائة سنة التى عاشتها أوروبا فى سلام بعد حروب نابليون ، عم الرخاء فيها أرجاء القارة ، فازدهرت الفنون ، وأعطت أوروبا العالم فى هذه الفترة أعظم السيمفونيات ، وظهرت أعظم مدارس الفن التشكيلى .

باختصار . فإن الرخاء الاقتصادى والاجتماعى والسياسى يؤثر على الفن كمًّا وكيفاً .

ولكن إنصافاً للحق . . فإن الكلمة الطيبة والصادقة مهما كانت حزينة ، فإنها تشرق فى وجدان المستمع جمالاً ومعانى نبيلة .

— أنت صاحب مجموعة من أحلى وأرق وأعف أغانى الحب . . فأنت القائل :

فأصون قلبى ذل سؤلك أن أراك فلا أراك
هذا نصيبى من هواك وصنع ما نسجت يداك

وأنت القائل :

وأدينى شايف بعينى كل اللى شايفه بعينه
والنسمه بينه وبينى تنقل لى شوق لعينه

فما هو الحب عندك :

— الحب دفعات ربانية . . وهو علاقة قدسية والله هو الذى يدفع الإنسان إلى الحب . . هذا إذا كان حبًا طاهراً . وهناك قصة خيالية من الأدب اليونانى القديم

تقول إن «زيوس» رب الأرباب خلق الناس أنصافاً . . وراح كل نصف يبحث عن نصفه الآخر إلى أن يلتقيا .

وقد يكون هذا اللقاء زواجاً أوحبا أوعشقاً ، وربما لقاءً فكريًّا . .

– كيف تلقيت خبر هبوط الإنسان على سطح القمر وأنت القائل يوماً . .

كلنا نحب القمر والقمر بيحب مين
حظنا منه النظر والنظر راح يرضى مين

والقائل :

فى الجو غيم حجب القمر وحرمنى من حسن جماله

– فى الحقيقة كانت صدمة لى . . فقد خيبت الأقمار الصناعية والصواريخ أحلام الشعراء وحطمت خيالاتهم . . ولكنى لا أظن أن أحداً سيحاول أن يكتشف بديلاً لهذا المعلق فى فضاء الكون يلهمه شاعريته وخياله . .

ربنا يعوض علينا . .

برغم هذا . . وبعد انقطاع أربعين عاماً عن كتابة الأغنية . . عدت أكتب من جديد وغنت لى «عفاف راضى» أغنية للقمر ، وهناك عدد آخر من الأغانى فى طريقها إلى الناس . وطبعاً . . بطل كلماتى دائماً هو القمر .

– اختيارك «لعفاف راضى» لتغنى كلماتك معناه أنك معجب بصوتها ، وهى من الأصوات الجديدة على غنائنا العربى . . فما رأيك فى الأصوات الجديدة ؟

– أصوات المطربين بصفة عامة تشبه زهور أى حديقة . . فليس الياسمين أجمل من الفل أو الورد أو البنفسج . . كل زهرة لها جمالها . . بعضها لون ورائحة . . وبعضها لون بلا رائحة والبعض الآخر رائحة بلا لون .

المهم أن يؤدى الصوت الكلمات المناسبة له فى قالب موسيقى مناسب كذلك .

– لى ملاحظة . . هى أن الطابع الدبلوماسى يغلب على إجاباتك ، ويبدو

أنك حريص على صداقة الجميع و (خايف تقول اللى فى قلبك) ؟

– طبعاً صداقة الجميع هامة بالنسبة لى . . ولكن لا تنسى أن المهنة أحياناً لها حكمها . . وأحياناً . . أكون (خايف أقول اللى فى قلبى) .

فالدبلوماسى غير الفنان . الدبلوماسى يتحدث باسم حكومته ويحرص على ألا يغضب منه أحد . . أما الفنان فهو يعبر عن نفسه وأفكاره الذاتية ، بكلماته الخاصة بعيداً عن أى قيد . . حتى قيود الزمان والمكان . . بل وقيود الواقع التى كثيراً ما يحطمها محلقاً فى عالمه الخاص .

وطبعاً لا وجه للمقارنة بين قيود الدبلوماسية وحرية الفنان .

ولكن الحمد لله . . أثرت الدبلوماسية على علاقاتى الشخصية ولم تؤثر على روح الفنان فى داخلى . . فأنا ما زلت حرا فى عواطفى وكلماتى .

كان من الصعب أن أنهى حوارى مع صاحب أعف وأجمل كلمات الحب ، وكان سؤالى الأخير . .

– ما هى أحب أغانيك . . أو بلغة الإذاعة (تحب تسمع إيه) ؟

– خايف . . بصوت «فيروز» . . ولا تتصورى سعادتى وهى تشدو بها فى أثناء وجودها فى القاهرة .

مع «حسين بيكار»
الرسام . . الموسيقى . . الكاتب

أقرب أبنائى شبهاً بى . . «يوسف فرنسيس»
تأثرت بالفن الفرعونى . . لأنه واضح وصريح

عندما تتأمل لوحاته تحس أنه داخلها بكل جوانب شخصيته ، فالخط يجرى على اللوحة بوضوح ونعومة ، وهذه هى ملامح الفنان «حسين بيكار» إنسان صريح وواضح ورقيق . . داخله صورة واضحة المعالم بلا حدود أو غموض ، وأعماقه صافية كصفاء الحياة كما تصورها ريشته .

يحمل اسمه شهادة بأنه (تركى) ، وتحمل بصماته الفنية شهادة بأنه (اسكندرانى — مصرى) . ابن بلد أصيل . له عديد من الهوايات الفنية . برع فى كل منها ودرس واحدة فقط . . فهو عازف ماهر على عدد من الآلات الشرقية . العود والطنبور والبزق — وله صوت جميل معبر . فهو مغن لأول فرقة فى مصر للموسيقى الشرقية . . وهو رسام حساس . . عبرت ريشته عن الواقع المصرى الشعبى بخطوط رومانسية رقيقة . . وكانت هذه المعادلة الصعبة هى جانب العبقرية فى شخصية (بيكار) الرسام الذى كان أول الدفعة الأولى لمدرسة الفنون الجميلة العليا فى عام ١٩٣٣ ثم عمل كأستاذ ورئيس لقسم التصوير فى كلية الفنون الجميلة

فى الفترة من عام ١٩٤٢ إلى عام ١٩٥٩ .

– أنا مصرى . . مصرى . . من مواليد الإسكندرية فى عام ١٩١٣ واسم جدى هو بيكار . وهو تركى الأصل . أسرتى فقيرة . . وليس لأحد من أفرادها اتجاه فنى واضح ، إلا أننى منذ طفولتى المبكرة كنت أنظر للمظاهر الفنية بانبهار ودهشة . وكنت دائماً أتمنى أن أحاكى ما أراه مرسوماً وما أسمعه منظوماً . .

كان دكان البراويز على ناصية الشارع يستوقفنى فى الذهاب والعودة . . لأرى وأتعجب كيف انتقلت الطبيعة والأشجار إلى صفحات الورق .

كنت أنبهر من أصوات الموسيقى عندما كانت صديقات أمى يزرنها يوم (المقابلة) وعندما كان معلم أختى الكفيف يأتى ليعطيها دروس العود ، فتعلمتها وأنا فى السابعة . . وكنت أعطى دروساً فى العود وسنى عشر سنوات .

– إذن أنت فنان موهوب ؟

– كلنا يحمل فى داخله طاقة خلاقة . . وهى تتحرك بالدراسة والممارسة ، وعندما كنت فى المدرسة الابتدائية كنت أهوى الرسم ، وشجعنى أساتذتى ، ولكنى لم أفكر أبداً فى احتراف الرسم ، ولم يكن لدى أى تصور حول تنمية هذه الهواية . . ولكن الأقدار هى التى جعلتنى أقابل صديقاً لعائلتنا أعرف منه أن هناك ما يسمى بمدرسة الفنون الجميلة ، وأن الدراسة ستبدأ فيها فى العام التالى ، والتحقت فى الدفعة الأولى لهذه المدرسة وكنت الأول على الدفعة سنة التخرج .

ما هى قصتك مع فرشاة الألوان ؟

بدأت محاولاتى فى الرسم بالمحاكاة والتقليد . . كنت أقلد الصور وأكبرها . . أما محاولتى للخلق ، فكانت فى سن الخامسة عشرة عندما مات أبى وتمنيت أن أرسم له صورة . . ولأنه كان شديد الشبه بى . رسمت نفسى ثم وضعت شنباً

وذقناً . ورسمت الصورة على قطعة من المشمع وبألوان أضفت لها زيت الزيتون لأنى سمعت أن الفنان الكبير يرسم « بألوان زيت على ورق مشمع » وكانت النتيجة طبعاً مضحكة .

وأحست أمي هوايتي وحبي للفنون فوافقت على دخولى مدرسة الفنون برغم أن هذا كان مرهقاً لها جدا ، وبعد تخرجي حاولت أن أعمل فى مجال العمل الحر ، ولكنى لم أوفق ، فعملت مدرساً فى وزارة المعارف من عام ١٩٤٢ إلى عام ١٩٤٣ ثم عملت مدرساً للتصوير فى كلية الفنون الجميلة ثم أستاذاً لهذا القسم حتّى عام ١٩٥٩ .

وبجانب هذا فهناك تجارب عديدة فى الرسم لكتب الأطفال ومجلاتهم ورسم أغلفة الكتب والصور التوضيحية لها ثم الرسم فى الصحف والمجلات ، كل هذه التجارب أضافت لخبرتى الفنية آفاقاً وأعماقاً جديدة .

— تخرج على يديك وأنت أستاذ فى كلية الفنون الجميلة عشرات بل مئات . . من هم أبرز تلاميذك وأكثرهم تأثراً بشخصيتك .

أنا لا أسعد إذا رأيت أحد تلاميذى يقلدنى أو يتأثر بشخصيتى ، عندما كنت مدرساً كنت أتخيل نفسى فلاحاً عنده بستان كبير . وقد نمت فيه أنواع مختلفة من الثمار ، والفلاح لا يملك أن يغير ثماراً بأخرى . ولكنه يملك أن يروى البذور ويصلح ويقتلع الضار ويُقوِّم المعوج ، ثم تثمر الأشجار ، وتعطى أشجار العنب عنباً ، وأشجار الرمان رماناً — كذلك يُعطى غيط البصل بصلاً — والحياة لا تستغنى عن كل هذه الثمار . . أما إذا حاول الفلاح أن يغير من طبيعة هذه الأشجار ، وأن يفرض على كل منها نوعاً معينا من الثمار . . فإنها لا تعطى ما يريد ، ولا تعطى ما تريد .

أنا درست لكل فنانى مصر بلا استثناء . كل الفنانين المعروفين حاليًّا تلاميذى . وكلهم عندى سواء . لهم حظ واحد من الحب والإعجاب .

وأقرب هؤلاء الأبناء شبها بك :

– « يوسف فرنسيس » .. بيننا تقارب فى المزاج .. لكنه فنان صاحب شخصية متميزة .

– من هو الفنان الحقيقى ؟

– الفنان الحقيقى هو الذى تعكس مرآة أعماله صورة الواقع .. وإذا لم تطابق الصورة الأصل .. فلابد أن المرآة غير سليمة .. لأن الفن الحقيقى هو مرآة المبدع . والفن الجيد هو إفراز طبيعى لتفاعل الفنان مع بيئته .

والفنان الصادق يخرج فنه تلقائيًّا مثل نبض قلبه .. لا يتصنعه . لا يتعمده .

– أنت فنان صاحب ريشة متميزة وخطوط فريدة .. بأى المدارس تأثرت فى الفن التشكيلى ؟

– تأثرت بالفن الفرعونى .. ، ثم بالرسوم اليابانية . فلها خطوط رقيقة ورومانسية .

– وهل أثرت هذه المدارس الفنية فى نظرتك للمرأة .. المرأة التى ترسمها ؟

– المرأة فى الرسوم الفرعونية مثال ناطق للأنوثة الطاغية المحتشمة الوقور ، .. فبرغم أنها تبدو عارية تمامًا ، فإنها لا تثير الغرائز .. كذلك فى تصوير الطبيعة. الرسم الفرعونى صادق ، ويهتم بالتفاصيل ويؤكد على المظاهر الكونية .. أنا عملت لفترة مدرساً فى مديرية قنا ، وكنت أحرص أغلب الأيام على زيارة المعابد والآثا الفرعونية ، وشربت روح الفن الفرعونى وأحببتها وشعرت أن هذا الخط يلا مزاجى الشخصى ، فأنا شخص واضح ودقيق وواقعى ، وتهمنى التفاصيل ، لأن

تؤكد المعنى داخل إطار اللوحة .

والمرأة التى أرسمها هى المرأة التى أقابلها كل يوم فى الشارع والسوق والمكتب .. أهتم بتفاصيلها لتنطق بكل ما أريد أن أقوله ، ولكنها دائماً محتشمة وقور لا تثير إثارة رخيصة .

– وتجربة الكتابة ؟

– أحياناً أحاول أن أضع بجوار صورى التى أرسمها فى جريدة الأخبار تعليقات مقفاة .. أنا لاأنظم ولكنى أكتب من وحى الصورة عبارات قد لا يجمعها إلا بعض التفاصيل ولا يربطها إلا إيقاع واحد ، أتعمده لأحافظ على النبض داخل إطار الصورة المرسومة .

أما المقال فهو تجربة ومحاولة متواضعة لوضع ما يمكن أن يسمى بالثقافة الفنية ، وهو نوع من الكتابة ينقصنا فى الصحافة العربية ، وتثقيف القارئ فنيًّا مسئولية الفنان والناقد . وهذه محاولة أرجو أن يتمها آخرون .

– والموسيقى ؟

أحببت الموسيقى منذ طفولتى المبكرة ، وكان يجاور منزلنا رجل عجوز يصنع آلات الموسيقى الشرقية القديمة مثل العود والطنبور .. ، وطبعًا أنا لم أعرف حتى أسماء هذه الآلات ، ولكنى كنت دائماً أتمنى أن أمسك بهذه الأشياء الغريبة التى تخرج لنا الألحان الجميلة .

ثم تعلمت العود وأنا فى السابعة من عمرى ، وظل هذا الحب وهذه الهواية حتى يومنا هذا ..

– وما سر اهتمامك بالآلات الشرقية القديمة مثل الطنبور والبزق ؟

– آلة البزق آلة فرعونية ، وهى آلة رقيقة وجميلة وهى حفيدة آلة الطنبور أى أنهما من عائلة واحدة ، وهذه الآلات تعطينى إحساساً بالأصالة ، وتعطينى

البصمات الشرقية الصميمة .

– وما هو الوصف الذى تعطيه لنغمة البزق ونغمة الطنبور .

– البزق إيقاع سريع .. منتهى المرح . وهو يشبه الزغرودة .. ، أما الطنبور فإيقاعه بطيء .. ولصوته مسحة دينية وعمق صوفى .

– وماذا عن الفرقة الشرقية الموسيقية ؟

كانت فرقة للهواة كونها « عبد الرحيم محمد » وكنت أنا مطرب الفرقة الأول ، وعازف العود والطنبور بها .. وكنا نقدم حفلات فى معهد الموسيقى الشرقية .. وفى بعض محطات الإذاعة الأهلية .

وكان يغنى معنا « فريد الأطرش » و « محمد عبد الوهاب » وغيرهم من مشاهير المطربين والموسيقيين ، وكنا نسهر كل مساء فى منزل أحدنا . وهذه هى هوايتى الثانية التى لم أنتظم فى دراسة لها ، وإن كنت لم أهملها ، أعطيتها اهتماماً قدر ما أعطيت هوايتى الأخرى (الرسم) .

والفنان « حسين بيكار » نموذج طيب للفنان الشامل الذى نفتقده كثيراً فى حياتنا الثقافية ، فهو رسام وموسيقى وكاتب ، وهاو لعديد من فروع الثقافة والفن .. ولأن الفنان الشامل فى مصر ظاهرة نادرة ، لا تكاد تتكرر إلا مرات قليلة وفى أسماء محدودة .

– سألت الفنان « بيكار » عن السر فى ندرة هذه النوعية من الفنانين ؟

– تعود هذه الظاهرة إلى الانغلاق الفكرى ، والفهم الخاطئ لمبدأ التخصص لدى بعض العاملين عندنا فى حقل الثقافة والفن ، كما أن التربية التى تتلقاها أجيالنا تحد من تفكير النشء ، ولا تعطيه الفرصة لتوسيع أفقه ، ويؤكد هذا ويساعد عليا النظام الاجتماعى السائد الذى لا يشجع العمل الحر ، ويؤيد الارتباط بقيو الوظيفة فتضيع الفرص على الكثيرين لإشباع هوايات مختلفة ومتعددة .

الفنان المنغلق فنان محدود الأفق لأن الفنون تكمل بعضها البعض . فالموسيقى تتعمق بالرسم ، والرسم يتضح بالشعر ، وقلم الشاعر يتجسد بفرشاة الفنان .

وربما كان لانغلاق الحياة الثقافية عندنا وافتقارها إلى اللقاءات التى تجمع المهتمين بالثقافات والفنون المختلفة ، دور فى انغلاق الفنان على نفسه .

– لمن ترسم ؟

– عندما يطلب منى عمل محدد بعد دراسة الموقف الخاص به دراسة متعمقة ، ولكنى كثيراً ما أنفرد بنفسى لأضع انطباعا عن الحياة وعن الموجودات حولى على صفحة بيضاء .. وتجرى فرشاتى معبرة عن داخلى وأنا حتى عندما أرسم (البورتريه) .. فأنا أضع فيه جزءاً من نفسى .. أليست أعمالى هى أبنائى .

استمر حديثى مع الفنان « حسين بيكار » لأكثر من ساعتين ونصف .. حديثه فى حلاوة رسمه .. وروحه فى صفاء لوحاته وأخيراً سألته :

– ما هى رسالتك فى الحياة ؟

فقال فى بساطة :

أنا وظيفتى مثل وظيفة الكرسى الهزاز .. يجلس عليه الشخص بعد عودته من عمله لينال قسطاً من الراحة .. وعلى فكرة هذه ليست كلمتى إنها عبارة قالها الفنان الفرنسى المعاصر (ماتيس) .

لقاء سريع مع « مدحت عاصم »*

الفنان الذى يعيش الربيع فى أيام الخريف :
مارست الرياضة .. وأحببت السياسة وعشقت الفن

فى العشرين من فبراير القادم يضىء له أصدقاؤه سبعين شمعة للاحتفال بعيد ميلاده كما تعوّد كل عام . وما أكثر أصدقاءه وأحباءه ! . فهو فنان يحمل فى قلبه كل الحب لكل شىء ولكل إنسان .. أمضى حياته يعطى ولا يطلب الجزاء أو التقدير .. وفى الشهر الماضى اختاره المجلس الأعلى للفنون والآداب للحصول على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون .

كنت وأنا فى طريقى للقاء (مدحت عاصم) أحاول أن أستعيد كل ما إختزنته ذاكرتى من معلومات موسيقية ، فقد كنت أظن أن حديثى معه سيكون حول الموسيقى الشرقية والسماعيات والأدوار ، فأنا لم أكن أدرى أنى فى طريقى إلى الأديب والمصور والسياسى والموسيقى « مدحت عاصم » .

بدأ حديثه معى حول مشاكل الحياة اليومية .. ومشاكل الصراعات الدولية ، ثم أجاب بابتسامة على كل علامات الاستفهام التى ارتسمت على وجهى وقال : (بالحب تنتهى كل مشاكل هذه الحياة .. بالحب يعم الرخاء وجه الأرض ..

---

* يناير ١٩٧٩

وبالحب تنتهى الخلافات المذهبية والفكرية بين الناس ، بالحب ترفرف حمائم السلام) .

ولفتت نظرى لوحة علقها فى مكان مميز ، تحمل إهداءً من الفنان السكندرى « سيف وانلى » بتاريخ ١٩٧٣ وهى مرسومة باللونين الأسود والرمادى .. فعلى الصفحة الرمادية تبدو صورة بيانو (أسود) عجوز ضخم لكنه جميل . قوائمه (رشيقة) لكنها قوية .. ولاحظ شيخ الموسيقيين فى مصر اهتمامى باللوحة فقال :

هذه اللوحة اسمها (مدحت عاصم) رسمها صديق ورفيق أيامى الفنان « سيف وانلى » . أما هذه الصورة فهى من تصويرى أنا ...

- إنها صورتك ؟

- لا .. إنها صورة أخى .. فهو قريب الشبه منى ..

- إذن فأنت تهوى التصوير الفوتوغرافى ؟

- لا يوجد فن لم أمارسه بدرجة أو بأخرى .

- حتى الكتابة ؟

- لقد عدت لأكثر من خمسين عامًا .. فقد كنت أكتب فى شبابى المبكر ما يمكن أن يسمى بالشعر المنثور .. وأحيانًا يصبح شعراً حرا .. محاولات أضع فيها انطباعاتى .

- ومتى بدأت قصتك مع الموسيقى ؟

- بدأت عندما منعنى الأطباء من ممارسة هوايتى المفضلة كرة القدم . بعد أن كسرت قدماى . فقد كنت أكرس كل حياتى للرياضة . وكنت أمارس السباحة والقفز والكرة وحمل الأثقال والمصارعة .

- نقلة كبيرة .. من موقع الجناح الأيمن إلى موقع المايسترو ؟

- نصيب .. لكن ميولى الموسيقية كانت موجودة داخلى منذ الصغر . فقد كان

منزلنا فى العباسية ملتقى لأقطاب الفكر والفن والأدب والسياسة فى مطلع هذا القرن .. لقد فتحت عينى لأرى فى منزلنا « سعد زغلول . وأحمد لطفى السيد . وأحمد شوقى . وحافظ إبراهيم ، والشيخ سلامة حجازى وغيرهم » . لكن قرار منعى عن الرياضة كان فرصة لكى أعطى هذه الهواية حقها من الاهتمام . ثم كان فرصة كذلك لكى أقرأ فى مكتبة والدى عيون كتب التراث العربى . مثل (الأغانى للأصفهانى) . (والمستطرب فى كل فن مستظرف للأبشهى) وطبعاً القرآن الكريم وتفاسيره قبل كل هذا .

لقد بدأت فى سن الرابعة عشرة أتعلم العزف على الكمان على يد «سامى الشوا » . وأتعلم العود على يد « الشيخ ابراهيم القبانى » .

ولما وضح اهتمامى بالموسيقى نصحنى أمير الشعراء « أحمد شوقى » أن أدرس الموسيقى فى معهد كونسرفتوار (بجين) وكان يقوم بالتدريس فيه أساتذة ألمان وإيطاليون ونمساويون .. وتعلمت هناك كتابة النوتة وقراءتها والعزف على البيانو .

ثم بدأت أهتم بالشئون السياسية وأنا فى المدرسة الثانوية وفصلت من مدرسة فؤاد الأول الثانوية لتزعمى مظاهرة ضد سياسة السراى والملك « أحمد فؤاد » ..

وانتظمت بعد ذلك فى دراسة الزراعة ولكنى لم أتمها .

— عرفتك الأوساط الفنية والثقافية فى مصر فى أثناء دراستك ؟

نعم .. فقد كنت أكتب فى عدد من الصحف مثل (السياسة الأسبوعية) ، ونشرت بها سلسلة مقالات وعمرى ستة عشر عاماً كان لها صدى كبير وكانت بعنوان (موسيقانا الشرقية وحاجتها إلى العناية والتهذيب) . وبعدها رشحت للانضمام إلى مجلس إدارة معهد الموسيقى الشرقى .. لكنى اعتذرت وقتها لأنى كنت صغيراً .

ثم كتبت سلسلة (أعلام الموسيقى الغربية) فى البلاغ الأسبوعى ، وقد رشحتنى

هذه المحاولات لمنصب المشرف على الموسيقى الشرقية فى أول إذاعة مصرية رسمية . سنة ١٩٣٤ وبعد ذلك شغلت منصب المدير الفنى الشرقى للإذاعة .

– ما هى الرسالة التى حققها لك عملك فى الإذاعة ؟

– كان عملى فى الإذاعة هو فرصتى لكى أطبق ما تعلمته وما وصلت إليه بدراستى ، وهو أن موسيقانا تفتقر إلى كثير من الأسس العلمية لكى تصل إلى مستوى عالمى فكان أول مشروعاتى فى الإذاعة هو تكوين فرقة للموسيقى الشرقية يكون هدفها تقديم الموسيقى المصرية المتطورة التى تقترب من الموسيقى العالمية . وكانت هذه الفرقة هى نواة فرقة الموسيقى العربية . ثم كونت أوركسترا على النظام الأوربى المعروف تولى قيادته « محمد حسن الشجاعى » . وكانت هذه هى نواة أوركسترا القاهرة السيمفونى .

لقد نجحت فى وضع الموسيقى البحتة فى مكانها . وأثبت أن لها دورًا منفصلا عن دورها فى تلحين الأغنية . كما قدمت للإذاعة عشرات الألحان الجماعية ، وكانت هذه هى أهم الإنجازات الفنية التى قدمتها للموسيقى .

– فما هى الإنجازات الأخرى ؟

– لقد فتحت الباب أمام المؤلف المصرى لكى يبدع فى مؤلفاته ، فقدمت سماعيات وكانت أعمالا رائدة . فمهدت الطريق وشجعت غيرى . وكنت أحرص على الأساليب العلمية فى كتاباتى الموسيقية ، وأضفت إلى فرقة الموسيقى الشرقية آلتى التشيللو والكونترباس .

– نعرف أنك قدمت « فريد الأطرش . وأسمهان ، ومحمد فوزى ، وليلى مراد . ونجاة على » .. فما هى الأصوات الجديدة التى تعجبك !

– للأسف ليس بين الأصوات الجديدة هذا الصوت الذى يمكن أن نحس فيه الإبداع أو بأنه صوت مثقف .. كلهم مؤدون ، ربما كان الصوت الوحيد المثقف

هو صوت « عفاف راضى » .. وهى ظاهرة جديدة فى عالم الغناء المصرى ..

وكان لابد من وقفة نلتقط فيها الأنفاس بعد رحلة الموسيقى الطويلة .. وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر قام « مدحت عاصم » وبخفة الشباب جلس أمام (البيانو) .. وعندما لمست أصابع الفنان أصابع آلته الأثيرة . خرجت نغماتها (لسماعى) من تأليف « مدحت عاصم » قطعت سكون شقته الهادئة ذات الطابع العربى . ثم انتقل إلى مقعد آخر احتضن عوده . ومال عليه برأسه وكأنه يسمع شيئًا لا نسمعه نحن .

– أنت فنان تجيد العزف على البيانو والعود ؟

أضاف والناى والكمان وعدد آخر من الآلات .

– أنت مايسترو فى قاعات الموسيقى وساحات القتال !

وابتسم الفنان « مدحت عاصم » وقال :

– هذا القول يعيدنى إلى أيام الشباب .. لقد بدأ اهتمامى بالسياسة وأنا صغير فقد كان يؤم بيتنا أقطاب السياسة فى مصر . وكنت أسمع مناقشاتهم وأحاديثهم ، وعندما بدأت أتابع الحياة العامة . كانت مصر تعيش أحداثًا كبرى . وكنت زعيمًا طلابيًا فى المرحلة الثانوية .. . ولما قامت الحرب العالمية الثانية . دعوت للثورة وللتخلص من الملكية ومن الاستعمار فقبض على وسجنت فى عام ١٩٣٩ .

وفى عام ١٩٤٨ تطوعت فى حرب فلسطين . ولما عدت إلى مصر اشتركت فى تشكيل خلايا فدائية لمقاومة النظام المَلَكى والاستعمار الإنجليزى ، إلى أن قامت ثورة يوليو . فكنت مراقباً عاما للدعاية فى هيئة التحرير . وفى ٥٤ – ١٩٥٥ سافرت إلى الحدود المصرية الفلسطينية للاشتراك فى العمليات الفدائية . ولما أصبحت عجوزاً عدت إلى ميدان الموسيقى فعملت مستشاراً فنيًا للموسيقى والغناء ورئيساً للجنة الاستماع بالإذاعة .

– صف لنا فرحتك بالجائزة ؟

– فرحتي الحقيقية هي أن أجد كل ما دعوت إليه وأفنيت شبابي من أجله قد تحقق في مجال العلم والثقافة الموسيقية .

– هل حققت أملك في تقديم موسيقى مصرية ؟

– لقد حاولت وليس لى حق تقييم تجربتي .

– أين نسمع الموسيقى المصرية الحقيقية ؟

فى الريف المصرى تسمع الموسيقى التلقائية الجميلة . ومن القرية يخرج كل فن أصيل .

– وماذا عن قصة معرفتك « بمحمد عبد الوهاب » ؟

– سمعت « محمد عبد الوهاب » فى أول حفل غنى فيه على مسرح معهد الموسيقى الشرقية (العربية حاليًّا) . وكان يومها شابا يافعًا . وفى تلك الليلة غنى (الليل لما خلى) . ورأيت يومها شيئاً جديدًا مختلفًا عما كنت قد تعودت سماعه وأحسست بالإبداع الموسيقى فى اللحن إلى جانب الغناء ، ونشأت بيننا صداقة وطيدة ، ومن خلال هذه الصداقة أهديته مجموعة أسطوانات غربية « لبتهوفن . وموزار ، وشوبان ، وفاجنر » . وأهدانى هو مجموعة أسطوانات عزف على الناى (لأمين بزارى) وكان إمامًا لعازفى الناى فى زمانه ، ومن خلال سماعى لهذه المجموعة ازداد تعلق بالنغم الشرقى ، واقترحت على « عبد الوهاب » وقتها اللحاق (بكونسرفتوار برجين) ، فكان أول ملحن مصرى يجيد النوتة الموسيقية قراءة وكتابة .

ثم عرفنى على أستاذه « درويش الحريرى » الذى أخذت عنه أصول التلحين الشرقى وحفظت عنه الأدوار والتواشيح ، ودامت صداقتى بعبد الوهاب طوال هذه السنين .

وتركت الفنان « مدحت عاصم » الذى كان رئيسًا للجنة القومية المصرية للموسيقى التابعة لليونسكو ، ثم مثل مصر فى المجلس الدولى للموسيقى التابع لليونسكو فى عام ١٩٧٥ ، ويشغل حاليًا منصب المستشار الفنى للموسيقى والغناء ورئيس لجنة الاستماع فى الإذاعة المصرية .

تركت الفنان الذى يمتلئ بيته بصور فوتوغرافية التقطها بنفسة لعدد من زعماء العالم ونجوم المجتمع . تركت الفنان « مدحت عاصم » وقد أمسك بيده الناى العجوز وراح يحكى معه حكاية زهور الربيع التى تتفتح فى أيام الخريف .

ثلاثى « صلاح طاهر »

– الملاكمة ..

– اليوجا ..

– الفن التعبيرى

فى مكتبه بصحيفة الأهرام طالعتنى صور عمالقة الكتابة والبيان والصحافة فى مصر ، رأيت « مصطفى لطفى المنفلوطى ، وأحمد لطفى السيد ، وأحمد شوقى ، وبشارة تقلا وجبران خليل جبران وتوفيق الحكيم وغيرهم » وقد اصطفت صورهم الزيتية تحمل توقيع (صلاح طاهر) .

قال لى الفنان « صلاح طاهر » إنه يستعد لمعرض يضم صور كتاب الأهرام وأدباء مصر. تطلعت كثيرًا إلى صورة أستاذ الجيل «أحمد لطفى السيد » ، فقد أحسست فيها بأعماق المفكر المصرى الأصيل . تخيلت أنى أحادثه ، وأن شفتيه تكادان تنطقان بالحكمة .

ولما لاحظ الفنان « صلاح طاهر » اهتمامى بهذه اللوحة بالذات قال لى :

–كان « لطفى السيد » من فلاسفة عصره .. لقد قرأت كل ما كتب وأحببته ، فأنا كثيراً ما أقرأ فى الفلسفة .

– يقول البعض إن الفلسفة هى تجريد تجارب الحياة ووضعها فى خطوط

عامة . كما أنها اختزال للخبرات والتأملات وصياغتها فى نصوص كلية

– هذا صحيح .. فالفلسفة هى تجريد العلوم الإنسانية .

– هل هذا هو سر تعدد لوحاتك التجريدية وقد رأيت على الأقل أربعًا منها فى طريقى إلى مكتبك اليوم .

– صحيح .. فمعظم أعمالى فى السنوات الأخيرة تتجه إلى التجريد مع التعبير ، فالتجريد يبسط الخطوط ويختزلها فى الوقت الذى يخرج فيه الأسلوب التعبيرى رؤيتى الخاصة للأشياء والأشخاص ، والفن التقليدى يحمل لنا مثلا عليا .. لكن النظرة المتحررة والفكر التقدمى ، يجب أن يستلهم هذا القديم ، ويبتكر مفهوماً أو قالباً جديدًا يلائم روح العصر.

ويرى الفنان « صلاح طاهر » أنه ليس صحيحًا أن البساطة هى روح العصر. فالتكنولوجيا الحديثة ودخول الميكنة فى عديد من مظاهر حياتنا حول الفن إلى مجموعة من الأشياء المعقدة ، والفن يحاول أن يكون واحة البساطة للإنسان المعاصر. ولكن أحياناً يحدث عكس ذلك .. فقد رأيت فى بعض المعارض الأوروبية كيف دخلت التعقيدات على بعض الأعمال الفنية .

اليوجا والشباب :

– تحدثت طويلا مع الفنان « صلاح طاهر » ، عن أفكاره الخاصة فى الحياة قال لى :

– أنا أقرأ كثيراً فى فلسفة الأديان ، وأمارس رياضة اليوجا ، واقتناء الا
إحدى هواياتى التى أنفق فيها كثيراً من دخلى ، أما أبنائى فواحد .. « أيمن » و
بالمئات ولا أعرف مكان أغلبها ، منها ثمانون لوحة فى مؤسسة الأهرام و
ظهرت علامات الدهشة على وجهى عندما علمت أن الفنان « صلاح ط

من مواليد ١٩١١ ، وظننت أن فى الرقم خطأ . وأن صحته ١٩٣١ ولكنه عاد فأكد لى أن الصحيح هو ١٩١١ .

– قال لى الفنان « صلاح طاهر » :

إن المصادفة هى التى جعلته يحصل على ثلاث جوائز فى ثلاثة أعوام متتالية . نقد حصل على جائزة جوجنهايم العالمية فى عام ١٩٥٩ وعلى جائزة الدولة التشجيعية فى عام ١٩٦٠ وعلى الجائزة الأولى فى بينالى الإسكندرية فى عام ١٩٦١ .

ثم حصل فى عام ١٩٧٤ على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون .

معانى القرآن :

وأسأل الفنان « صلاح طاهر » الذى يشغل منصب المستشار الفنى لجريدة الأهرام منذ عام ١٩٦٦ عن فكرته القديمة لرسم مجموعة لوحات تمثل بعض معانى القرآن الكريم فيقول لى :

– هذه الفكرة راودتنى منذ أكثر من عشرين عاماً وعرضتها على شيخ الأزهر الشيخ « محمود شلتوت » ، وتقبل الفكرة ورحب بها لأنه لا اعتراض على أن تحمل اللوحات الفنية بعض معانى القرآن الكريم . وكان لقائى بالشيخ « شلتوت » مثمرًا ، لأنه كان رجلا معروفًا بثقافته ورحابة أفقه .

إلا أن الموضوع أثار بعض الجدل ، ووجدتنى أواجه أفكاراً متحجرة ووجهات نظر محدودة ، فأرجأت المشروع ، وأرجو أن أتمه قريبًا . وهناك لوحة واحدة نفذتها ، وكانت من وحى الآية (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ....) (سورة البقرة آية ٣٤) .

وكان هدفى أن أقرب معانى القرآن من خلال الرمز لإيمانى بأن عنصر الرمز هو

الذى جعل الأديان كلها نستمر ، برغم اختلاف العصور والثقافات) .

شاهدت عشرات اللوحات بريشة (صلاح طاهر) ، التجريد هو أسلوبه الشائع وألوانه صريحة ، وتعطى إحساسًا بالعمق ، والرؤية المدققة وقفت أمام بعض لوحاته التى التزم فيها بالأسلوب التعبيرى ، فرأيت أشخاصه شديدى الطول ، وخلفياته تتداخل فيها الأشكال الزخرفية مع الأشكال التجريدية .

واستوقفتنى إحدى لوحاته .. ووجدتنى أردد قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) فاللوحة ذات الخلفية الزرقاء فى لون السماء الصافية تحمل كلمة (هو) باللون الأخضر الفوسفورى والأصفر ، مما جعل حروف الاسم يشع نورًا ، وأحسست بفرشاة الفنان تسبح على لوحة الصورة وتنطق هامسة (هو .. الله) .

حدثنى الفنان (صلاح طاهر» عن لوحته (هو) فقال :

- يستخدم بعض التشكيليين حروف الكتابة العربية بشكل زخرفى ، وحاولت أنا أن أستخدم هده الحروف بشكل تجريدى ، فأخرجت هذا التشكيل الجمالى بهذه الألوان التى تعطى نفس الإحساس حتى لمن لا يعرف حروف العربية .

مدير الأوبرا :

كان لابد أن أسأل الفنان التشكيلى « صلاح طاهر » عن ظروف عمله كمدير لدار الأوبرا فى عام ١٩٦٣ فقال : أنا أومن بوحدة الفن ، والفن الصادق ينبع دائمًا من الوجدان ، فالموسيقى والغناء والرقص والرسم كلها أدوات يعبر بها الفنان عن وجدانه ، ولكن بأسلوبه الخاص ، والأوبرا من الفنون الشاملة التى تحتاج إلى تعاون أكثر من فنان ، كما أن وظيفة مدير دار الأوبرا وظيفة ثقافية ومتصلة بالعلاقات الفنية العالمية وليست وظيفة إدارية .

فن – وثقافة :

فى بيت الفنان « صلاح طاهر » لا يلفت نظرك إلا اللوحات الزيتية ورفوف الكتب .. ويبدو أن الفن والثقافة هما محور حياته ، وسألت زوجته كيف تسير الحياة اليومية للفنان الرسام « صلاح طاهر » فقالت لى :

– برنامج زوجى اليومى يتوزع بين نشاطه العام مثل حضور لجان مجلس الفنون ، أو المجالس القومية المتخصصة أو الأهرام أو نادى الروتارى ، إلى جانب المحاضرات الثقافية أوجلوسه فى مرسمه ، أما أسعد أوقاته فهى التى يقضيها مع أحفاده .. أبناء (أيمن) .. ابننا الوحيد .

ويلتقط الفنان « صلاح طاهر » خيط الحديث من زوجته وتلمع السعادة فى عينيه وهو يتحدث عن (أيمن) . أيمن فنان مجدد .. وبرغم أنه يشبهنى فى كثير من الأمور ، فإنه صاحب شخصية فنية خاصة . فهو يمثل جيله ، ويمثل ثقافته ، وإن كان قد تأثر بى فى نواح شخصية أخرى .

فهو يعشق القراءة مثلى ، وإن كان له رأيه الخاص ، كما أنه يمارس نفس الرياضة التى كنت أمارسها فى نفس السن . وهى (الملاكمة) . وقد حصل كما حصلت على الميدالية الذهبية أما الآن فهو يهوى رياضة الغطس تحت الماء .

– هل يمكننا اعتبار (أيمن) امتدادا لمدرسة والده الفنان « صلاح طاهر » ؟

وأجابنى الفنان صلاح طاهر :

– بالطبع لا .. فالظروف التى نشأ فيها (أيمن) تختلف تماماً عن الظروف التى نشأت فيها . أنا بدأت رحلتى من الصفر ، بدأت من التقليدية الكلاسيكية ، ثم مررت بالمرحلة التأثيرية خاصة فى رسم المناظر والموضوعات الطبيعية والعامة .. ثم انتقلت إلى التعبيرية ، ومنها بدأت أعبر بحرية فى الخط واللون والشكل والموضوع ،

وبعدها وجدت فى التجريد متعاً أكبر.

بعد كل هذه المراحل ، وبعد كل هذه التجارب ، وجدت نفسى فى أسلوب خاص يمكن تسميته بالأسلوب التجريدى التعبيرى .

أما بالنسبة (لأيمن) ، فقد وفرت عليه كل هذه الرحلة .. وبدأ هو من حيث انتهيت أنا .. وهذا هو منطق الحياة والأمور . فَلَوْ بدأ هو .. كما بدأت فسينتهى إلى حيث انتهيت ، ولن تكون أمامه فرصة للتجديد والابتكار . ومن المدهش أن حفيدى .. (ابن أيمن) .. بدأ ينافسنا هو الآخر .. عمره سبع سنوات ولكنه فنان حساس ، وله لوحات لن يصدق أى ناقد فنى أنها من رسم طفل صغير ، ويبدو أنه ورث الحساسية الشديدة للون والخط عن أبيه .

– وعن جده .. ؟

وتنطلق ضحكة الفنان « صلاح طاهر » .. معبرة عن شبابه وثقته بنفسه وفرحته بجيل الفن الجديد . وقبل أن أصافح الفنان الكبير مودعة قام إلى مكتبه وعاد إلىّ بكتاب كبير ، وقال لى :

– أنصحك بقراءة هذا الكتاب .. إنه وصفة مضمونة للصحة والشباب وطول العمر .. وأرجو أن تعيدى الكتاب مرة أخرى .

وأمسكت بالكتاب لأقرأ عنوانه

(اليوجا .. تطيل عمرك)

مع الطبيب كاتب الحرام ، والعيب ، والنداهة*

« يوسف إدريس » يكتب روشته على ورق سوليفان
وينادى بحزب نسائى يدافع عن المرأة !

كان يعد نفسه ليكون (جرَّاحاً) أداته المشرط والمقص .. وهدفه هو تخفيف آلام الناس .. وربما قضى ساعات من نهاره وليله يتخيل نفسه بالرداء الأبيض والقناع المعقم وحوله مساعدوه ، والكل يعمل ، والهدف هو إنقاذ هذا المريض الذى زاره يوماً يحمل متاعبه وآلامه .

ولكن مع السنوات استبدل « د . يوسف إدريس » وظيفة القصاص بوظيفة الجرّاح ، واستبدل القلم بالمشرط ، وبدلا من أن يزوره المرضى فى عيادته طلبًا للشفاء وقد تحسس كل منهم موضع الألم بأصابعه المرتعشة ، أصبح يزور هو الناس فى بيوتهم ويضع هو يده على موضع الألم .. بعد أن تتعرى الحقيقة وتنتزع الأقنعة .

وبدلا من كلمات صغيرة غير محببة فى تذكرة الدواء ، أضحت عباراته الرقيقة تملأ صفحات الكتب والمجلات .

لم يكن أول طبيب يهجر الطب إلى الأدب ، ولكنه أول طبيب يمارس مهنة التشريح ووصف الدواء والعلاج فى كتاباته .

* يونية ١٩٧٩

سألته عن الحب فقال :

– إنه أعلى مراحل العلاقة بين الرجل والمرأة .

أما المرأة فى نظره فهى – الحياة

والزواج – هو مصنع هذه الحياة .

– وهو يرى أن الأطفال أجمل شىء على ظهر الأرض .

أخذنى الكبار من الصغار :

سألته . هل لك تجربة فى الكتابة للأطفال ؟

وابتسم « د . يوسف إدريس » وهو يقول :

– (لا يمكن أن أكتب للصغار وأنا مثقل بمشاكل الكبار .. أتمنى أن تنتهى هذه المشاكل فأكتب للأطفال ، وهنا تتحقق واحدة من أكبر أمنياتى) .

– وأين تضع اسم « يوسف إدريس » ؟ هل مع الروائيين ، أو مع كتاب القصة القصيرة ؟ .

– (أنا أرفض هذا التقسيم .. فالعمل الفنى شىء أوسع وأعمق من أن يصنف هكذا ، إن الفكرة وحجمها وطريقة تناولها هى التى تفرض المساحة التى يجب أن تعرض فيها . والكتابة فى تصورى هى رؤية الكاتب للعالم والكون . وهذه الرؤية هى التى تفرض شكل العمل .. فربما كان مسرحية أو رواية أو قصة قصيرة .. المهم أن يحقق الكاتب هدفه من خلال ما يكتب) .

– وما هو هدف القصاص « يوسف إدريس » الذى يسعى إليه من خلال ما يكتب ؟

– (هدفى دائماً هو تحريض الشخصية المصرية على القوة .. على التغلب على ما فيها من تناقضات وازدواجية ، هدفى هو تحريض المصرى على الثورة على القيود

التي فرضتها عليه رواسب الماضي . وأمنيتي أن أرى الإنسان المصرى قد كسر الجانب العبودى من شخصيته ، وأصبح حرا فى فكره وفى فهمه لمعطيات الحياة .. وطبعاً العيوب الشخصية للفرد تنعكس على المستوى الاقتصادى والاجتماعى والفكرى للمجتمع .

وهذه ليست دعوة لترك تراثنا وتاريخنا وتقاليدنا ، ولكنها دعوة لكسر القيود التي تمنعنا من السير فى ركب التطور الحضارى .

ويضيف « د. يوسف إدريس » . لقد حاولت أن أفتش من خلال أعمالى القصصية عن ملامح العالمية فى شخصية الإنسان المصرى .. وطبعاً لا يمكن أن نجد هذه العالمية بعيدًا عن الشخصية الإقليمية المتميزة بملامحها الإيجابية) .

وأخذنا الحديث عن سلبيات المجتمع وإيجابياته إلى الحديث عن المرأة .. وتحمس الدكتور « يوسف إدريس » وهو يتحدث عن المرأة المصرية وقال لى :

– برغم التعديلات التي تطرأ كل يوم على قانون الأحوال الشخصية فى مصر ، فإن المرأة فى مصر مظلومة .. مشاكلها عديدة ، وليس هناك من يدافع عنها ، وأنا لا أجد أكفأ من المرأة لتدافع عن المرأة .. وكم أتمنى أن أعيش اليوم الذى أرى فيه تنظيماً نسائيًّا مصريًّا قويًّا يدافع عن حقوق المرأة ، ويحارب فى سبيل تدعيم كيانها الإنسانى والقانونى .. لقد طالب « قاسم أمين » بتعليم المرأة وحرية عملها ، وخرجت المرأة لمجالات العمل والتعليم ولكن سلاسل عديدة من التخلف الفكرى فى المجتمع مازالت تشدها إلى الوراء وتعرقل مسيرتها . إن الاعتراف بالكيان الإنسانى والعاطفى والثقافى للمرأة يجب أن يكون هدفنا فى المرحلة القادمة .

حب الريف .. يطاردنى :

والدكتور «يوسف إدريس» نموذج للفنان الحقيق .. فهو إنسان رقيق ..

صادق .. لا يجامل كثيراً .. وإذا اضطر للمجاملة فكلماته القليلة دائماً عذبة .. قوية .. سألته عشرات الأسئلة فى حوارى الذى امتد لأكثر من ثلاث ساعات . وكانت إجاباته دائماً واضحة وصريحة وعنيفة .. أحسست بروح الثورة تجرى فى عروقه .. فهو شديد الانفعال والغيرة على أهله ووطنه وقوميته .. يرفض الكلمات النمطية ، والأسماء الشائعة ، والتصنيفات والتقسيمات .. ، الحياة عنده أغنية سريعة الإيقاع قليلة الكلمات .. تقفز فرحًا وأنت ترددها .. وليست موالا يغلبك النعاس وأنت تستمع إليه .

سألت الفنان (الشرقاوى) « يوسف إدريس » عن تأثير نشأته الريفية على إنتاجه الفنى فقال :

– إن عددًا كبيرًا من أعمالى خاصة فى مستهل حياتى كانت من الريف مثل (الحرام) و(النداهة) إلاأن ابتعادى عن القرية فى السنوات الأخيرة جعلنى أهتم بمشاكل المجتمع القاهرى أكثر.. والريف الآن ليس هو ريف الثلاثينات والأربعينات ، إلا أن حنينى إلى الأرض الخضراء يطاردنى دائماً .

– هل أنت راض عن أعمالك التى تحولت إلى أفلام سينمائية وتليفزيونية ؟

– فى الحقيقة .. لا .. ولو أن هذا يغضب المخرجين ، إلا أنهم جميعاً فشلوا حتى الآن فى التعبير عن روح القصة وأفكارها فى أفلامهم ، بل إن بعض هذه الأعمال جاء هابطًا وساذجاً ولا يتصل من قريب أو من بعيد بما كتبت أنا ..

والمشكلة تكمن فى أن تحويل العمل الروائى إلى عمل سينمائى يقتضى عمل سيناريو يتفق ومفاهيم المخرجين المصريين ، وقد لا يتفق هذا ومفاهيم مؤلف الرواية .

ويلمع اسم « الدكتور يوسف إدريس » فى السنوات الأخيرة بين كتاب المقال الصحفى النقدى الساخر ، وبعد المسرحيات التسع ، والروايات السبع ،

والمجموعات القصصية التسع ، يأتى كتاب « يوسف إدريس » رقم ٢٦ ليضم مجموعة مقالات بعنوان (من مفكرة يوسف إدريس) ويؤكد أن الطبيب القصاص بدأ يلمع فى هذا الفن الجديد . وأسأله عن هذا التحول فيقول :

– الرواية والقصة أدوات تأثير للمدى الطويل ، ولا يظهر تأثير مضامينها إلا بعد مدة طويلة أما المقال ، فتأثيره أسرع وأحياناً أجدنى مضطراً لمحاربة واقع ما بشكل سريع .. ولأننا نواجه الآن العديد من المشاكل على كل المستويات وفى كل الاتجاهات ، فقد وجدت أن المقالة هى وسيلتى لأرفع صرخاتى وأصب ثورتى ، المهم أن تكون بعد هذا مؤثرة .

ووجدتنى أستعيد مع « الدكتور يوسف إدريس » عشرات القضايا التى أثارها فى مقالاته منذ أكثر من سنتين . وكم كان مندهشاً سعيداً وأنا أذكره بمقاله عن غزو السلع الاستهلاكية المستوردة للسوق المصرى ومنافستها للبضائع المحلية . والمقال الآخر الذى كتبه عن مشاكل الشباب المصرى الذى يسافر إلى أوربا للعمل صيفاً وغيرها وغيرها ..

الجائزة العالمية :

ويتسلم الدكتور « يوسف إدريس » رسالة من الولايات المتحدة ويقرأ بسرعة الخطاب ويشرق وجهه بابتسامة ، وتلمع عيناه وهو يقول لى :

– اختارتنى لجنة الجائزة العالمية للأدب التى تنظمها (جامعة أوكلاهوما الأمريكية) لأكون أحد الحكام لجائزة عام ١٩٨٠ وهيئة التحكيم تضم عشرة أعضاء يمثلون جنسيات ولغات مختلفة ، أما الجائزة فهى تعادل فى قيمتها الأدبية جائزة نوبل .

وأجد فرحة « الدكتور يوسف إدريس » قد انتقلت إلىّ .. فهذا أديب مصرى

يجلس بين أدباء العالم ليختار أديب عام ١٩٨٠ ويرفع علم مصر فى أفق جديد من آفاق الفكر العالمى :

وبين مئات الكتب الموضوعة فى مكتبه أرى أعماله المترجمة ، ولا تساعدنى خبرتى باللغات التى ترجمت إليها أعمال « د . يوسف إدريس » فيقول لى :

– هذه أعمال كاملة لى ترجمت إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والروسية والأسبانية والبولندية والرومانية .

أما أعمالى ضمن مجموعات مترجمة فهى عديدة وكثيرة ، بعضها سمعت عنه ولم أحصل على نسخ منه .

.. ويرن جرس التليفون ويرفع « يوسف إدريس » السماعة وبنفس النبرات الهادئة الوديعة ، وبالكلمات المهذبة جدا والمختصرة جدًا . يمضى حديثهُ . ولا ترتفع نبراته إلا إذا انطلق ضاحكاً .. فتحس أنه يضحك من قلبه .

ويمسح « يوسف إدريس » على شعره الفضى : برغم أعوامه الاثنين والخمسين فقط وهو يقول لى .وبنفس الهدوء :

– التغيير .. كل حياتنا محتاجة لتغيير .. وجداننا محتاج إلى تغيير . يجب أن نبرأ من أمراضنا المتوارثة والمزمنة لننطلق ونلحق بالركب .. إن ما نحن عليه الآن من لا مبالاة . عيب وحرام .



الفهـــرس

صفحة

رقم الإيداع	١٩٨٢/٢٤٩١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٠٢٨- X

١/٨١/١٤١
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



